الكلم الطيب

رياض الصالح

- أهـدي هـذه الكلمـات إلى سماحـة الشيخ أحمـد كفتـارو رحمه الله الذي ربـاني وعلمني وزكَّاني ورعاني وهداني إلى الله وإلى ذكر الله القلبي . جـزاه الله خير ما جازيت شيخاً عن مريديه .
- كمـا أهـدي ذلـك إلى أمـي العزيـزة الـتي كنـت وحيـدها وقدمت لي كل ما أريد وأطلب، وتوفيت قبل أن تحصد الثمرة الـتي زرعتـها وسـقتها وحرصـت عليهـا ، حيـث توفيـت قبـل تخرجي من كليـة الهندسـة بحلب بأشـهر قليلـة رحمهـا الله وجعل مثواهـا الجنـة راجيـاً من الله أن يجعـل ثـواب أعمـالي في صحيفتها إن شاء الله .

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين الذين نشروا دينه في أرجاء العالم وكانوا خير أمة أُخرجت للناس، وبعد.

فإن أحسن الكلام كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وخير من مشى على سطح الأرض بعد الأنبياء والمرسلين هم صحابة النبي محمد ﷺ. فقد عمت دعوتهم كل مكان وظهر أثرهم في كل زمان وتنورت القلوب بعلمهم ومعارفهم، ووصفهم ربهم بأنهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وبعد فقد اخترت عنوان هذا الكتاب (الكلم الطيب، وأطايب الكلام) من مصدرين اثنين هما:

أولاً: كتاب الله عز وجل:

قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾.

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

ثانياً: قول الصحابي الجليل أبي الدرداء حيث يقول:

لولا ثلاث ما أحببت البقاء في الدنيا: سجود الليل، وصيام الهواجر، وصحبة الإخوان الذين ينتقون أطايب الطعام كما يُنتقى أطايب الثمر.

وأخيراً أحب أن أذكر أنني لست ممن يكتب وليس مقامي هذا ولكني أحب أن أقرأ. وأما اختياري لكتابة هذه الوريقات فهو لأمر خطر ببالي وهو أنني سأودع الحياة بعد حين فأحببت أن يكون لي أثر بعد وفاتي لأبنائي وذريتي من بعدي.

وذكرت قول النبي ﷺ حيث يقول: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له».

ورأيت أنه لدي أولاد يدعون لي إن شاء الله وهم يقومون بالصدقة الجارية هم وذراريهم إن شاء الله وبقي الثالثة وهي: علمٌ يُنتفع به وأرجو أن تكون هذه الوريقات جزءاً من هذا العلم.

وفي الختام أُشير إلى أن هذه المجموعة من المؤلَّف ليست من تأليفي وإنما جمعتها من عدة كتب ورتبتها وأضفت إليها بعض الأفكار والآراء التي تستهويني، وأرجو من الله عز وجل أن تكون في ميزان حسناتي يوم القيامة وأن ينتفع بها أبنائي وذريتي وكل من قرأها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رياض الصالح

❁ ❁ ❁

١ قيام الليل

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢].

وقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٨-٧٩].

وقال: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

قال رسول الله ﷺ: «من قام من الليل فصلى صافحه جبريل ومن صافحه جبريل رق قلبه وكثر دمعه».

قال رسول الله ﷺ: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه يترل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فاستجيب له حتى ينفجر الفجر».

قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكُن».

قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله الحرام، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل».

قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء».

قال رسول الله ﷺ: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا ركعتين جميعاً، كُتبا في الذاكرين والذاكرات».

قال رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دَأَبُ الصالحين قبلكم وقربةٌ إلى ربكم وَمَكْفرةٌ للسيئات ومنهاة عن الإثم».

قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس».

قال رسول الله ﷺ: «من عجز عن الليل أن يكابده وعن المال أن ينفقه وعن العدو أن يقاتله فليكثر من ذكر الله تعالى».

قال رسول الله ﷺ: «إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه».

قال رسول الله ﷺ: «قم من الليل ولو قدر حلب شاة».

قال أبو الدرداء: لولا ثلاثة ما أحببت البقاء في الدنيا: سجود الليل، وظمأ الهواجر، وصحبة الأخوان الذين ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب الثمر.

قال الإمام الشافعي: لولا صحبة الأخيار ومناجاة الله بالأسحار ما أحببت البقاء في هذه الدار.

ورد أن الله أوحى إلى بعض أنبيائه: «إن لي عباداً يحبونني وأحبهم ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم ويذكرونني وأذكرهم وينظرون إليَّ وأنظر إليهم، فإن حذوتَ طريقهم أحببتك وإن عدلت عن ذلك مقتك.

قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه ويحنّون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنَّهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا أقدامهم وافترشوا لي وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا لي بإنعامي، فبين صارخٍ وباكٍ وبين متأوه وشاك، بعيني ما يتحملون من أجلي وبسمعي ما يشكون من حبي، أول ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثاني: لو كانت السموات السبع والأرضون وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم. والثالث: أُقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟».

وكان رسول الله ﷺ يستاك مراراً قبل النوم ويستقبل القبلة وينام على جنبه الأيمن ثم يقول: «باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين.

اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبة منك ورغبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك.

آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت.

اللهم قني عذابك يوم تبعثك عبادك.

الحمد لله الذي حكم فقهر، الحمد لله الذي بطُن فحيّر، الحمد لله الذي ملك فقدر، الحمد لله الذي يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

اللهم إني أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشيطان وشركه».

ثم يقرأ آية الكرسي- وأواخر سورة البقـــرة ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وآخر سورة الحشر وآخر سورة الكهف والمعـــوذات والإخـــلاص وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وجسده، ويقول اللـــهم أيقظـــني في أحب الساعات إليك.

ما هي الأسباب التي تُخل بقيام الليل؟

١- كثرة الاهتمام بأمور الدنيا.

٢- كثرة الأشغال في الدنيا.

٣- إتعاب الجوارح من أجل الدنيا.

٤- امتلاء المعدة من الطعام (أذيبوا طعامكم بذكر الله).

٥- كثرة الحديث واللغو واللغط والكلام الفاحش والبذيء (مـــن أســـاء في النهار حُرم القيام في الليل).

٦- إهمال القيلولة.

قال النبي ﷺ لأبي هريرة: «أطعم الطعام وأفشِ السلام وصلّ الأرحـــام وصلِ بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام».

قال الحسن: إن الرجل ليذنب الذنب فيُحرم به قيام الليل.

يا طويل الرقـــاد والغفـــلات ... كثرة النوم تورث الحـــسرات
إن في القـــبر إن نزلـــت بـــه ... لرقاداً يطـــول بعـــد الممـــات
ومهـــاداً ممهـــداً لـــك فيـــه ... بذنوب عملـــت أو حـــسنات
أأمنت البيات من مَلَك المـــوت ... وكـــم نـــال آمنـــاً ببيـــات

❁ ❁ ❁

٢ محاسبة النفس

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقال الإمام الشافعي: صحبت هذه الطائفة مدة استفدت منهم بكلمتين:

الأول: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر.

وقال البوصيري في بردته:

وخالف النفس والشيطان واعصهما فإن هما محضاك النصح فاتهم

ولا ترض منهما خصماً ولا حكماً فالله يعلم كيد الخصم والحكم

وقال بعضهم: عالجت نفسي على قيام الليل عشرين سنة ثم استمتعت به.

وقال آخر: عالجت شهوتي عشرين سنة، حتى صارت شهوتي المعالجة.

وقال ثالث: ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي حتى انقادت إليه وهي تضحك.

وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم.

أيها الأخ الكريم: اجلس مع نفسك وادخل إلى أعماقها وأبحر في أغوارها المظلمة وتلفت في أرجائها وجز في أوديتها وجبالها حتى تعرف عيوبها، وبعد ذلك سوف تقول لقد وجدت فيها:

١- حب الراحة وكراهية المشقة (ولو كانت لله) واختلاق المعاذير لتبرير المواقف.

٢- وجدت فيها: الفضول وشغفها لمعرفة ما لا يعنيها.

٣- وجدت فيها: العبث والضحك والجلوس في جلسات اللـــهو وإضـــاعة الوقت فيما لا يفيد.

٤- وجدت فيها: كرهها واستثقالها لخدمة الآخـــرين وحبـــها وولعهـــا أن يخدمها الآخرون.

٥- وجدت فيها: فرحها عندما يمدحها أحد المقـــربين ونفورهـــا عنـــدما ينتقدها الآخرون.

٦- وجدت فيها: شديدة الغضب عندما تُجرح بكلمة، وبتحفزها للانتصار ممن جرحها.

٧- وجدتها: تمنعني أن أقول لا أعلم إذا سُئلت ليظن الناس أنني مـــن أهـــل العلم.

٨- وجدت فيها: إذا جادلت أحداً أحبّت العلو والصواب وكرهت لغيرهـــا الحق والانتصار.

٩- وجدت فيها: إذا جلست مجلـــساً أردت أن اســـتأثر لنفـــسي بـــالكلام دون غيري.

١٠- وجدت فيها: الخوف التام من الفقر وضيق العيش وتمنعني من الإنفاق في سبيل الله.

١١- حبها للشهوات وتطلعها للملذات.

هذه الوقفة مع النفس وقفها أسلافنا وكان ذلك دأب الصالحين.

فهذا ابن الجوزي ينوح على نفسه ثم يكتب ما قاله ابن عقيل في خطابه لنفسه فيقول لنفسه:

يا رعناء، تُقومِّين الألفاظ ليقال: مناظر كما يقال للمصارع الفاره.

ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء وهي أيام العمر.

أفٍ لنفسي: وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم، وما عَبِقَ بها فضيلة، إن نوظرتْ شمختْ وإن صحَّت تعجرفت وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف أف -والله- مني: اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها.

والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب.

والله إني قد بهرني حلم هذا الكريم عني، كيف يسترني وأنا أهتك، ويجمعني وأنا أتشتت.

حتى يُقال غداً مات الحبر العالم الصالح ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني.

والله لأنادين على نفسي نداء المكشِّفين معائب الأعداء، ولأنوحن نوح الثاكلين للأبناء، إذ لا نائح لي ينوح عليَّ لهذه المصائب المكتومة والخلال المغطاة التي قد سترها من خَبَرهَا وغطاها من علمها.

والله: ما أجد لنفسي خلَّة أستحسن أن أقول متوسلاً بها: اللهم اغفر لي كذا بكذا.

والله ما التفتُ قط إلا وجدت منه سبحانه بِراً يكفيني، ووقاية تحميني من تسلِّط الأعداء.

ولا عرضتْ حاجة فمددت يدي إلا قضاها، هذا فعله معي وهو ربٌ غني عني، وهذا فعلي معه وأنا عبد فقير إليه.

ولا عذر لي فأقول: ما دريت أو سهوت.

والله: لقد خلقني خلقاً صحيحاً سليماً، ونور قلبي بالفطنة حتى إن الغائبات والمكتومات تنكشف لفهمي.

فواحسرتاه على عُمرٍ انقضى فيما لا يطابق الرضا.

واحرماني لمقامات الرجاء يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وشماتة العدو بي.

واخيبة من أحسن الظن بي إذ شهدت الجوارح عليَّ.

واخذلاني عند إقامة الحجة. سخر والله مني الشيطان وأنا الفطن فاللهم توبة خالصة من الأقذار ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار.

وقد جئتك بعد الخمسين وأنا من خَلَقِ المتاع وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدِنِ الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم.

فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نِعمك ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك، فاغفر لي سالف فعلي.

وفؤادي كلما عاتبته ... هام في اللذات يبغي تعبي
لا أراه الدهر إلا لاهيا ... في تماديه فقد برَّح بي
يا قرين السوء ما هذا الصبا ... ذهب العمر كذا في اللعب
وشباب بان مني فمضى ... قبل أن أقضي منه أربي
ما أُرجي بعده إلا الفنا ... ضيقَّ الشيب عليّ مطلبي
ويح نفسي لا أراها أبداً ... في جميل لا ولا في أدبِ
نفسي لا كنت ولا كان الهوى ... اتقِ الله وخافي وارهبي

هذا ومن أراد الوقوف على عيوب نفسه ليصلحها فله في ذلك أربعُ طرق:

١- أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس يعرِّفه عيوب نفسه وطـــرق علاجها، وقد عز في هذا الزمان وجوده، فمن وقع به فقد وقع بالطبيب الحاذق، فلا ينبغي أن يفارقه.

٢- أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، ينصِّبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

لما قدم سلمان المدينة المنورة قال له عمر: أخبرني عن عيوبي قال: سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حُلتين: حلة بالليل وحلة بالنهار فقال: هل بلغك غير هذا، قال: لا قال: أما هذان فقد كُفيتهما، وكان عمر يسأل حذيفة هل أنا من المنافقين.

٣- الطريقة الثالثة: أن يستفيد من معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فـــإن عين السخط تبدي المساوئ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يُخفى عنه عيوبه.

٤- الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم يجتنبه.

قال ابن القيم رحمه الله: من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض لمعصيته، وأن تذوق ألم الوحشة في معـــصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عَصْرة القلب عند الخوف في غير حديثه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، ثم لا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه.

وأعجب من هذا: علمك أنك لا بد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه، وأنت معرض عنه وفيما يبعدك عنه راغب.

❁ ❁ ❁

٣ فضل العقل وذم الهوى

قال علي بن أبي طالب: إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فأهدوا إليها طرائف الحكمة.

اعلم أن لكل فضيلة أساً ولكل أدب ينبوعاً، وأس الفضائل، وينبوع الآداب هو العقل، الذي جعله الله للدين أصلاً، وللدنيا عماداً.

فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبَّرة بأحكامه، وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم.

قال رسول الله ﷺ: «ما اكتسب المرءُ مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى أو يردُّه عن ردى».

وقال رسول الله ﷺ: «لكل شيء عُمِل دعامة، ودعامة عمل المرء عقله، فبقدر عقله تكون عبادته لربه». قال تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وقال سيدنا عمر: أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، ومروءته خلقه.

يَزين الفتى في الناس صحة عقلهِ ... وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يُشين الفتى في الناس قلة عقلـه ... وإن كَرُمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه ... على العقل يجري علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقلـه ... فليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقلـه ... فقد كملت أخلاقه ومآربه

وقال أبو حامد الغزالي: إذا أردت صاحباً فصاحب ذا:

١- العقل ٢- الدين ٣- الخلق ٤- أن يحبك ويرغب فيك كما تحبه وترغب به.

وضد العقل والعاقل: الحمق والأحمق.

وقال الإمام جعفر الصادق: خمس لا تصحبهم:

١- الأحمق: فإنه يضرك من حيث يريد أن ينفعك.

٢- الجبان: فإنه يسلمك وأنت بأشد الحاجة إليه.

٣- البخيل: فإنه يتخلى عنك وقت الشدة.

٤- الكذاب: فإنه يقرب لك البعيد ويبعد عنك القريب.

٥- الفاسق: فإنه يبيعك بلقمة أو أقل منها، قالوا وما أقل منها، فقال يُوعد بها ثم لا ينالها.

وقيل في الأمثال: عدو عاقل خير من صديق جاهل (أو أحمق).

وقال رسول الله ﷺ: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه».

ويُروى عن عمر بن عبد العزيز أنه أتاه وفد من إحدى القبائل، فأتى إليه غلام شاب ليتكلم إليه فقال: قدموا من هو أسن منه، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين لو أن الفضل بالأسن لاختار الناس للخلافة من هو أسن منك.

وقال سيدنا عمر: المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم عُرف خيره من شره.

وقال رسول الله ﷺ: «لسان المؤمن من وراء قلبه، وقلب المنافق من وراء لسانه».

وحكى الأصمعي: قلت لغلام حَدَث كان يحادثني فأمتعني بفصاحة وملاحة لسانه: أيُسرك أن يكون لك مئة ألف درهم وأنت أحمق قال:

لا والله: قلت: ولِمَ قال: أخاف أن يجني عليَّ حُمقي جناية تذهب بمالي ويبقى عليَّ حُمقي، فانظر إلى هذا الغلام كيف استخرج بفرط ذكائه وجودة قريحته ما يدل على من هو أكبر منه سناً.

ويروى أن سيدنا عمر مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه إلا عبد الله فقال له عمر مالك لِمَ لا تهرب مع الصبيان فقال: يا أمير المؤمنين لم أكن على ريبة فأخافك، و لم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك.

وقيل من ذكاء سيدنا علي وسرعة بديهته أنه سُئل: كم بين السماء والأرض: فقال: دعوة مستجابة، قيل فكم بين المشرق والمغرب فقال: مسيرة يوم للشمس.

روى أنس أن الصحابة أثنوا على رجل عند رسول الله ﷺ: فقالوا عن عبادته وخلقه وفضله وأدبه فقال النبي ﷺ: «كيف عقله»؟ قالوا: يا رسول الله إننا نثني عليه بأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال: «إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، إنما يقْرُب الناس من ربهم بالزُّلف على قدر عقولهم».

وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الناس أعقل الناس».

فأما الدهاء والمكر والخديعة فهو مذموم لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر ولو صرفه إلى الخير لكان محموداً، وحكى المغيرة بن شعبة عن سيدنا عمر قال: كان والله أفضل من أن يَخدع وأعقل من أن يُخدع وكان يقول: لست بالخب والخب لا يخدعني.

وقال رسول الله ﷺ: «يا عويمر: ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً» قلت: بأبي أنت وأمي ومن لي بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله وأدِّ فرائض الله تكن

عاقلاً، ثم تنَّفل بصالحات الأعمال، تزدد في الدنيا عقلاً وتزدد من ربك قرباً وبه عزاً».

قال أنو شروان لوزيره: ما خير ما يُزين المرء؟ فقال: عقل يعيش بـــه. قال: فإن لم يكن؟ قال: إخوان يسترون عيبه. قال: فإن لم يكن؟ قال: مـــال يتحبب به إلى الناس. قال: فإن لم يكن؟ قال: فِعي صامت. قـــال: فـــإن لم يكن؟ قال: فموت جارف.

وقد وصف بعض الأدباء العاقل والأحمق: فقال: العاقل إذا والى بذلَ في المودة نصْرهُ، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره، فيسعد مواليه بعقله ويعتـــصم معاديه بعدله، إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر، وإن أساء إليه مسيء، سبَّب له أسباب العذر، أو منحه الصفح والعفو، والأحمق ضال مـــضل: إن أُونس تكبر، وإن أُوحش تكدر، وإن استُنطق تخلَّـــف، وإن تُـــرك تكلَّـــف، مجالسته مهْنة، ومعاتبته محنة، ومحاورته تغرُّ، ومولاته تضرُّ، ومقاربته عمـــى، ومقارنته شقا، وكانت الملوك إذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل.

والأحمق يُسيئ إلى غيره ويظن أنه قد أحسن إليـــه فيطالبـــه بالـــشكر، ويحسن إليه فيظن أنه قد أساء إليه فيطالبه بالوتر (الثأر أو القطيعة)، فمساوئ الأحمق لا تنقضي وعيوبه لا تنتهي، ولا يقف النظر منها إلى غاية إلا لوحَّت ما وراءها، بما هو أدنى منها وأردى، وأمرُّ وأدهى.

ومن قصص الحماقة: استعمل معاوية رجلاً فقـــال: لعـــن الله المجـــوس ينكحون أمهاتهم.

ورجل أقاد كلباً بكلب فقال الشاعر:

شهدت بأن الله حـــقٌ لقـــاؤه وأن الربيع العـــامري رقيـــع

أقاد لنا كلباً بكلب و لم يـــدع دماء كلاب المسلمين تـــضيع

العقل والهوى:

سُئل سيدنا عمر كيف كان يعبد الصنم مع رجاحة عقله؟ فقال:كان لنا عقول و لم تكن لنا هداية، والهداية من الله هي أن يخالف المؤمن هواه.

ولذلك فإن الهوى عن الخير صاد وللعقل مضاد لأنه يُنتج من الأخـــلاق قبائحها ويُظهر من الأفعال فضائحها ويجعل ستر المرءوة مهتوكـــاً ومـــدخل الشر مسلوكاً.

قال ابن عباس: الهوى إله يُعبد من دون الله وتلا قوله تعـــالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «طاعة الشهوة داء، وعصيانها دواء».

وقال سيدنا عمر: اقذعوا هذه النفوس عن شهواتها، فإنها طلاعة تنـــزع إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مُرِّي، وإن الباطل خفيف وبيّ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

وقال علي رضي الله عنه: أخاف عليكم من اثنتين: اتباع الهوى، وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل يُنسي الآخرة.

إن الهوان هو الهوى قُصر اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانـــا

وقال ﷺ: «حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات».

فإذا انقادت النفس للعقل بما قد أُشعرت من عواقب الهوى، لم يلبـــث الهوى أن يصير بالعقل مدحوراً وبالنفس مقهوراً، ثم له الحظ الأوفى في ثواب

الخالق: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

قال العباس بن عبد المطلب: إذا اشتبه عليك أمران، فدع أحبَّهما إليك، وخذ أثقلهما عليك، وعلة هذا القول: هو أن الثقيل تبطئ النفس عن التسرع إليه فيصبح مع الإبطاء وتطاول الزمن صواب ما استُعجم وظهور ما استبهم. وأخيراً نسأل الله أن يكفينا دواعي الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائداً والعقل لنا مرشداً، فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سيدنا عيسى فقال: «يا عيسى عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني».

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السِّقام وذي الضَّنى ... كيما يصحَّ به وأنت سقيم
إبدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهى عنه فأنت حكيم
فهناك تُعذر إن وَعَظت ويُقتدى ... بالقول منك ويُقبل التسليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

❁ ❁ ❁

٤ ذكر الموت

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال: ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨].

ووقف النبي ﷺ على شفير قبر أحد الصحابة، فبكى حتى بلَّ الثرى ثم قال: «يا إخواني لمثل هذا فأعدوا».

وكان النبي ﷺ يقف على قبور أصحابه عند الدفن ويقول: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل».

وكان سيدنا عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي، وتبكي من هذا فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه العبد فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد».

قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

قال رسول الله ﷺ: «لا تمنوا الموت فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد حتى يرزقه الله الإنابة».

وقال رسول الله ﷺ: «لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً».

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه».

وعن عمر بن الخطاب في آخر أيامه كان يقول: اللهم قد ضعفت قوتي وكبرت سني وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مقصر، فما جاوز ذلك الشهر حتى قُبض رحمه الله.

قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال سبعاً: غنىً مطغياً، أو فقراً منسياً، أو هرماً مفنداً، أو مرضاً مقعداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فإنه شر غائب يُنتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمرُّ».

وقال رسول الله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل مرضك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

وكان أحد الصالحين ينادي بالليل على أسوار المدينة ويقول: الرحيل الرحيل، فلما توفي سأل عنه أمير المدينة فقالوا: إنه قد مات فأنشد يقول:

ما زال يلهج بالرحيل وذكره ... حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه متيقظاً متشمراً ... ذا أهبة لم تلهه الآمال

قال أبو الدرداء: ألا أخبرك بيوم فقري؟ يوم أدخل فيه قبري.

يروى أن رجلاً دخل على عمر بن عبد العزيز فرآه قد تغير من كثرة العبادة، فتعجب من تغير لونه ورقة جسده، فقال له عمر: يا ابن أخي: وما تعجبك مني؟ فكيف لو رأيتني بعد دخولي قبري بثلاث، وقد خرجت

الحدقتان فسالتا على الخدين وتقطعت الشفتان وتقلصت عن الأسنان، وخرج الصديد والدود من الفم والمنخرين، وانتفخ البطن فعلا على الصدر. لو رأيت إذ ذاك مني فهو أعجب مما رأيته الآن.

قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي. إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

فخيل لنفسك يا ابن آدم إذا أُخذت من فراشك إلى لوح مغتسلك فغسلك الغاسل وأُلبست الأكفان، وأُوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان وقال الغاسل أين زوجه فلان وأين اليتامى تركككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبداً.

وأقبلت الصغرى تُمرغ خدها ... على وجنتي حيناً وحيناً على صدري
وتخمش خديها وتبكي بحرقة ... تنادي أبي إني غُلبت على الصبر
حبيبي أبي من لليتامى تركتهم ... كأفراخ زغب في بعيد من الوكرِ

وقيل لما اشتد مرض الرشيد أحضروا له طبيباً بارعاً فلما نظر إلى بوله قال: قولوا لصاحب هذا الماء أن يُوصي، فيئس الرشيد من نفسه وأنشد:

إن الطبيب بطبه ودوائه ... لا يستطيع دفاع نحب قد أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذي ... قد كان أبرأ مثله فيما مضي
مات المداوي والمداوى والذي ... جلب الدواء وباعه ومن اشترى

وقال الشاعر:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع ... فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح مات قبل سقيمٍ ... ذهبت نفسه النفيسة فلته

قال أبو الدرداء: أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه لا يدري أأرضى الله أم أسخطه، وأبكاني فراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله يوم تبدو السريرة علانية ثم لا أدري إلى الجنة أو إلى النار.

وقال أنس بن مالك: ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق بمثلهن: أول يوم يجيئك البشير من الله تعالى: إما برضاه وإما بسخطه، ويومٌ تُعرض فيه على ربك آخذاً كتابك إما بيمينك وإما بشمالك، وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور و لم تبت فيها قط، وليلة تمخَّضُ صبيحتها يوم القيامة.

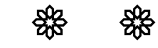

٥ العلاج الصحيح للجسد والروح

١- قراءة القرآن الكريم.

٢- الدعاء وخاصة بأسماء الله الحسنى.

٣- الاستغفار.

٤- التهليل والتحميد والتسبيح.

٥- الصلاة على النبي سيدنا محمد ﷺ.

أولاً: القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة مدى الدهر إلى قيام الساعة، أنزله الله ليكون ضياءً وهدىً وذكرى للمؤمنين.

لقد عجز الإنس والجن عن محاكاته ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل: ٩٠] فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، والله ما يقول هذا بشر.

قال فيه النبي ﷺ: «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخير ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملّه الأتقياء، ولا يخْلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم».

إنه العروة الوثقى التي يرتبط فيها الأفراد والجماعات فيشيع الأمن ويعم الاستقرار.

ورد في بعض الأخبار: يقول الله تعالى: «يا عبدي أما تستحي مني، يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت تمشي فتعدل عن الطريق فتقعد لأجله وتقرأه وتتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتاب أنزلته إليك، انظر كم فصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه، أفكنتُ أهون عليك من بعض إخوانك.

يا عبدي: يقص عليك بعض إخوانك حديثاً فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فإن كلمك متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أُومأت إليه أن كف وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت تعرض عني بقلبك أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

قال أحد البلغاء: من أمضى يوماً من عمره في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أثله، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه وظلم نفسه.

وتلاوة القرآن تحضرها الملائكة فقد روي عن النبي ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده».

وقال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه».

وعن أبي ذر: قلت يا رسول الله أوصني قال: «عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله» قلت: يا رسول الله زدني قال: «عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض، وذخر لك في السماء».

وقال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وقال ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن مترلتك عند آخر آية تقرؤها».

وقال ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله، وحرم حرامه أدخله الله به الجنة، وشفَّعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار».

وكان سيدنا عمر يخاطب القراء ويقول: يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وَضَحَ لكم الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على الناس».

وقال عبد الله بن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصحته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون.

قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا».

يقول ابن القيم: القرآن كلام الله فتارة يتجلى الله فيه بجلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكبر، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها ويصبح فؤاده فارغاً إلا من محبته.

وتارة يتجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان فتنبعث قوة الرجاء من العبد.

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة بالسوء وبطلت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإنزال الكتب والشرائع انبعثت من النفس قوة الامتثال والتنفيذ لأمره.

وإذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم. انبعثت من العبد قوة الحياء فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره أو يُخفى في سريرته ما يمقته من حركات وأقوال وخواطر.

وإذا تجلى بصفات الفرد والكبرياء بدا على النفس الذل والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له فتعلو القارئ السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه ويذهب طيشه وقوته وحدته.

❁ ❁ ❁

٦ البكاء من خشية الله

قال رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله».

وقال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ومنهم ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه بالدمع».

وقال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يخرج من عينه من الدموع مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى فيصيب حر وجهه فتمسه النار أبداً».

وقال ابن عباس: ما دمعت عين إلا بفضل الله، وما دمعت عين امرئ حتى يمسح الملك قلبه.

وقرأ النبي ﷺ مرة في صلاته: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وجعل يرددها ويبكي حتى الصباح.

وقال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله».

أطت السماء وحق لها أن تأبط ما من موضع شبر إلا وملك ساجد.

وفي حديث: «من قام من الليل فصلى صافحه جبريل ومن صافحه جبريل رق قلبه وكثر دمعه».

وقال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بِحُزْنٍ، فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا».

وقال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا اجتمع على عبد غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم».

وقرأ النبي ﷺ مرة: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] فأخذ يرددها ويبكي حتى طلع الفجر.

وقرأ عمر بن الخطاب: في صلاة الفجر سورة يوسف حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] فسبقته العبرة وانقطع صوته من البكاء ومرض وعاده الناس من شدة التأثر.

وقرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١-٧٢] وجعل يرددها ويبكي حتى أصبح.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم ارزقني عينين هطالتين بذروف الدمع قبل أن يصبح الدمع دماً والأضراس جمراً».

وسُئل رسول الله ﷺ: يا رسول الله ما النجاة؟ فقال: «إبكِ على خطيئتك وليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك».

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير فقدك باطل

قال الله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٥٨].

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [سورة الإسراء].

يقول الله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [سورة النجم].

٧ الرجوع إلى الله عز وجل

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

هذا عتاب لقوم من المؤمنين فترت هممهم عن القيام بما نُدبوا له من الخشوع ورقة القلوب بسماع مواعظ القرآن، ثم حذرهم الله أن يكونوا مثل أهل الكتاب الذين طال العهد بينهم وبين أنبيائهم فقست قلوبهم وتركوا أوامر الدين ونواهيه، ثم أبان الله لهم بضرب المثل أن القلوب تحيا بالذكر وتلاوة القرآن كما تحيا الأرض الميتة بالغيث والمطر.

روي عن ابن مسعود أنه قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش بعد أن كانوا في جهد وقلة فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا.

وعن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن بهذه الآيات.

قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليخلق كما يخلق الثوب فجددوا إيمانكم بلا إله إلا الله وبقراءة القرآن».

لقد صاح بالصحابة واعظ ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] فجزعت للخوف قلوب، وَجَرت للحزن عيون.

رمى الصديق ماله حتى ثوبه وتخلل بالعبا، وقال عمر: ليتني كنت تبنة، وقال عثمان: ليتني إذا متُ لا أبعث.

وصاح عليّ بالدنيا: طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، وقد كانت تكفي واحدة لكنه كيلا يتصورُ الهوى جواز المراجعة وطبعه الكريم يأنف من المحلل.

وقال أبو الدرداء: ليتني كنت شجرة تُعضد.

وقال عمران بن حصين ليتني كنت رماداً.

فنحن نسمع القرآن ولكن لا كما سمعوه.

لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزَّةَ ركعـــاً وســـجوداً

يا أخي: انتبه من رقاد الغفلة، فقد طلع ضوء الشيب فأسرع في سير الجد فقد رحلت الرفقة، وتلمح آثار السالكين لعلك تقع على الجادة فـــإذا لحقـــت بالركب، فقف نفسك على خدمة الإبل فربما دخلت خيمة من أحببت:

فقلت دعوني واتباعي ركابكم اكنْ أطوع أيديكم كما يفعل العبد

وما بال زعمي لا يهون عليهم وقد علموا أن ليس لي منهم بدُّ

فالبدار البدار يا أخوة الإيمان قبل أن يلق المفرِّط ما ضاع، ولا تيأس من روح الله فكم شُفي مَنْ أشرف على الهلاك، لا تعجب من صورة المتعبـــد، وتلمَّح أَحَسُنَ المقصد؟

ليس كل مصلٍ متعبد ولا كل صائم بزاهد ولا كل باكٍ بخاشع ولا كل متصوف بصافٍ، وليس كل مستديرٍ يكون هلالاً، وليس التكحل كالمكحلِ.

لقد ذهب أهل التحقيق، وتخلَّف أهل السِّنةِ والنوم، لقد خلت البقـــاع من الأحباب وتبدلت العمارة بالخراب.

قال ابن الجوزي: كان المشايخ في قديم الزمان أصحاب قَدَم، والمريدون أرباب ألم، فذهب القدم والألم، كان المريد يسأل عن غُصة، والشيخ يعرف القصة واليوم لا غصة ولا قصة، كان الصوفية يـــسخرون بالـــشيطان والآن يسخر الشيطان منهم، وكان الزهد في بواطن القلوب، فـــصار في ظـــواهر الثياب، فيا صوفي صوف قلبك لا جسمك وأصلح نيتك لا مرقعتك فإذا كان العلوي ثابت النسب لم يحتج إلى ضفرتين.

أتحدو ومالك بعير؟ أتحدُّ قوساً وما لها وتر؟ وتتجشأ من غير شبع واعجباً من وَحْمى بلا حَبَلْ، وأسفاً لقلوب أذابها حب الدنيا يتلاعب بها الغُرور في بحر الهوى تلاعب الموج بالغريق.

صح بالمتنطعين المغرورين، أي ذنب اقتطعهم؟ أين تعبد السري وأين جد الجنيد وأين مجاهدة أبي يزيد وأين جوع الشبلي وأين عزم إبراهيم؟

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

لقد انكسر مغزل رابعة وبقي قطن الحلاج و لم يبق منهما إلا روايات وأخبار:

أيها الحادي بأحداج الجمالِ لا تُنِخْ بالربع إن الربع خالي
ما عسى أن ترتجي من دِمَنٍ أقفرت من أهلها فهي خوالي
قد عفت أطلالها واندرست قف بنا نبكي لأطلال بوالي
لهف نفسي لليالٍ سلفت آه هل ترجع لي تلك الليالي
لا تقل لي بمنىً تُعطَ المُنى بمنىً كان من القوم انفصالي

كان مجلس الذكر في الماضي مأتم الأحزان، فهذا يبكي لذنوبه، وذاك يُندب لعيوبه، وآخر على فوت مطلوبه، وذلك لإعراض محبوبه، أتدرون هذا التائب لم أنَّ؟ وهذا الحزين كيف حنَّ؟ لقد ذكر عهداً كان قد صفا ثم تكدَّر فانزعج لحالٍ حالَ وتغير.

من سمع نوح الحمام ظن أنه لحسن صوته غنَّ، لا وإنما يبكي المذنب على ديارٍ قد عَمَرها بالتقوى كيف أخربتها الذنوب.

وفؤادي كلما عاتبته هام في اللذات يبغي تعبي
لا أراه الدهر إلا لاهيا في تماديه فقد برح بي
وشباب بات مني فمضى قبل أن أقضي منه أربي

يا قرين السوء ما هذا الـــصبا ذهب العمر كـــذا باللعـــب
ما أرجـــي بعـــده إلا الفنـــا ضيقَّ الشيب علـــي مطلـــبي
ويح نفـــسي لا أراهـــا أبـــداً في جميـــــــل لا ولا في أدبِ
نفسي لا كنت ولا كان الهوى اتـــق الله وخـــافي وارهـــبي
يـــــــا آل ودي أنـــــــتم أملـــــــي
ومـــــن نـــــاداكمُ يـــــا آل ودي قـــــد كُفـــــي
وحيـــاتكم قـــسمٌ وأنـــا بغـــير حيـــاتكم لم أحلـــفِ
لو أن روحي في يدي ووهبتها لمبشري بقدومكم لم أنصف
عـــــودوا لمـــــا كنـــــتم عليـــــه مـــــن الـــــوفى
كرمـــــاً فـــــإنني أنـــــا ذلـــــك الخِـــــل الـــــوفي

وأخيراً فإن البلاد تمر بقحط شديد ينذر بقلة الموارد الطبيعية ونسأل الله عز وجل وبعد الرجوع إليه أن يغيث البلاد والعباد.

دعاء الاستسقاء:

اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً غدقاً مجللاً عاماً طبقاً ســحاً دائمــاً، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم إن بالعباد والبلاد والبــهائم والخلق من اللأواء والجهد والضنك ما لا نشكوه إلا إليك.

اللهم أنبت لنا الزرع وأدِّر لنا الضرع واسقنا من بركات السماء وأنبت لنا من بركات الأرض.

اللهم أرفع عنا الجهد والجوع والعري، واكشف عنا من الــبلاء مــا لا يكشفه غيرك، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً فأرسل السماء علينا مدراراً.

اللهم إنا خَلْقٌ من خلقك فلا تمنع عنا بذنوبنا فضلك.

٨ حب الدنيا وكراهية الموت

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وعن ابن عمر قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي وقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ولا في كتابها ولكن اختلفت في الدنيا.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس».

وقال رسول الله ﷺ: «لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

وقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم».

ولا يفهم من هذا الحديث سب الدنيا مطلقاً ولعنها بل الملعون منها ما يُبعد عن الله كما يدل حديث آخر عن النبي ﷺ: لا تسبوا الدنيا، فنعم مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر، وإذا قال العبد لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربه.

وقال رسول الله ﷺ: «لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال».

وقال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي من شيء أضر على الرجال من النساء».

وكان رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فقال: يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك يا ابن آدم من مالك إلى ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء».

وقال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبغ في النار صبغة ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيُصبغ في الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط.

ومرَّ النبي ﷺ بالسوق والناس حوله فمر على جدي أسك ميت، فتناوله وقال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم»؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به قال: «أتحبون أنه لكم» قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه أنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم».

وقال رسول الله ﷺ: «من زهد في الدنيا أسكن الله الحكمة قلبه وأطلق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا وأخرجه منها سالماً مسلَّماً إلى دار السلام».

وقال رسول الله ﷺ: «ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها».

وقال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعلُ أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بما ترجع إليه».

وقال ﷺ: «من علائم الشقاء: قسوة القلب وجمود العين وطول الأمل والحرص على الدنيا».

وقال الفضيل من علائم السعادة: اليقين في القلب والورع في الدين والزهد في الدنيا والحياء والعلم.

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز يقول: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن وليست بدار إقامة، وإنما أُنزل آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد فيها تركها، والغنى فيها فقرها، فهي تُذل من أعزها وتفقرُ من جمعها، فكن فيها كالمداوي جراحته، يحتمى قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء، مخافة طول البلاء. فاحذر هذه الدار الغرارة الخداعة التي زينت بخدعها وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشرفت لخطابها، فالعيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغترّ وطغى فشغل فيها لبه حتى زالت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته فخرج بغير زاد. فاحذرها يا أمير المؤمنين وكن أسرَّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها. فإن صاحب الدنيا كلما أطمأن منها إلى سرور أشخصه إلى مكروه فقد وُصِلَ الرخاء منها بالبلاء وجُعل البقاء فيها إلى فناء. فسرورها مشوب بالحزن، لا يرجع منها ما ولى وأدبر ولا يدري ما هو آت فينتظر، أمانيها كاذبة وآمالها باطلة، وصفوها كدر وعيشها نكد. ولقد عُرضت على نبيك ﷺ بخزائنها ومفاتيحها فأبى أن يقبلها، وكره بأن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه.

وبعد فإن كل ما نجده اليوم في دنيانا من خصومات وأحقاد وشحناء وبغض وحسد ومكر وخدع وظلم وقهر وفجور واستكبار وعلو وفساد وتفرق وتمزق وكره وخيلاء كل ذلك مرده إلى حب الدنيا وما فيها من مال ونساء ومنصب ورئاسة.

ولن تستقيم حياتنا حتى نعود إلى الله ونعود إلى دينه وقرآنه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ونترع من قلوبنا حب الدنيا وكراهية الموت ونعلم علم اليقين أننا ميتون وموقوفون أمام الله عز وجل وسوف نحاسب على الصغير والكبير والفتيل والقطمير، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أخيراً أوضح أن الزهد في الدنيا المذمومة يكون على خمسة طرق:

١- ترك الحرام واجتناب المعاصي والآثام.

٢- تناول الحلال والمباح فيها بحدود الوسطية والاعتدال بلا إسراف ولا بخل ولا تبذير.

٣- أداء الواجبات المادية والمعنوية نحو الله والناس والأهل والنَّفْس.

٤- أن يكون المال في يد المسلم، لا في قلبه، يُغيث به الملهوف ويعين على نوائب الدهر.

٥- أن تكون بما عند الله تعالى أوثق منك بما هو في يدك.

❁ ❁ ❁

٩ الأثرة وحب الذات

رُوِيَ عن خبر أمية بن أبي الصلت أنه كان رابع الحنفاء الأربعة: زيد بن عمر بن نوفل، وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل، فقد نبذوا دين قومهم الوثني، وانقلبوا يعبدون الرحمن وحده، فتنصر قس وورقة ومات زيد وبقي أمية وكان الرجل قد قرأ كتب الأولين أن نبياً قد آن أوانه سيبعث في الحجاز ويجمع الله على يديه العرب.

وكان يرى نفسه أهلاً لذلك فأكثر من تعبده وضراعته ووسَّع قراءته وثقافته حتى أصاب من كل شيء علماً وافراً، وكان يقرض الشعر ويحسن الخطابة ويبلغ في القول.

ولما جاءه الخبر ببعثة النبي ﷺ انكشفت طويته على الفور فإذا هو ذئب في ثوب ناسك والتفت إلى السماء ساخطاً مرتاباً ناقماً: ألم يعجبك إلا هذا الأمي اليتيم؟ ابن أبي كبشة، وأين تركت أمية؟ شاعرك وذاكرك ومادحك؟

والقلب المخذول بعدئذ كان من أشد الناس عداوة للهدى الذي كان قد وطَّن نفسه من أجله وأقسم أن لا يمس الماء جلده حتى ينتقم لنفسه من محمد.

ومضت عشرون عاماً على حربه للإسلام ووقعت حرب ثقيف وأقبل الثقفيون يستشيرونه فراح ينفخ في نار الحرب بفحيح المكر والشعر ليدرك بخبث الحقد والفجور ما فاته من شرف النبوة.

وانقلب على فراش موته كالغول الخائب في وخمه وقذره وأظافره، وعلم ساعة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

هيهات أن يدرك ثمة ما كان يدركه من المتزلة لو أنه خلع ثوب أنانيته من البداية.

ثم طواه التراب بعدئذ وتجاوزته الأيام كأن لم يكن شيئاً مذكوراً، ولم يبق لهذه الموهبة الهائلة من ذكر إلا ما تبقى من ذكر الأنانية والحقد والأسف، من مورثه الأول إبليس حيث قال أنا خير منه:

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى في الخير أعلى عقبة
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن يشاء جل الله واهب المنن

لقد قال النبي ﷺ: «كنت وأبو بكر كفرسي رهن فاختاري الله لرسالته ولو اختار أبا بكر لتبعته».

إن أمية بن أبي الصلت ليس مجرد اسم عابر في الأيام بل هو صورة متكررة يعيشها الكثير من الناس الذين لا تحقق الأيام طموحاتهم وآمالهم فينقلبوا عليها ساخطين:

كل عهد فرعون فيه وموسى وأبو الجهل في الورى ومحمدُ

وفي بناء الحركات الإسلامية ما أشد خطر هذا الصنف من الناس وما أسوأ الآثار التي يتركونها في الدعوة الإسلامية.

لذلك فإن شيوخ الطريق يتخذون لذلك العدة الكافية ويرسمون الطريق إلى الله على أنه مائة درجة أولها مقام الفناء، وهي أن تفنى عن رغباتك وآمالك وطموحاتك في امتثال مراد الله وهديه. وقد قدمت لهذا الفصل بهذه المقدمة لأقف بك على بيان قدرة التصوف على توجيه أشد الغرائز أثراً في السلوك الإنساني. فقد ضرب الشيخ أمين أروع الأمثلة في نكران الذات والفناء في مسيرة الجماعة يوم توفى الشيخ عيسى وأوصى أن يكون خليفته

من بعده الشيخ أمين الزملكاني، وكان الشيخ عيسى قد خلف بعده خمسة خلفاء أجازهم بالإجازة العامة والخاصة وهم:

١- الشيخ عطا الكسم المفتي العام للجمهورية السورية.

٢- الشيخ أبو الخير الميداني رئيس رابطة العلماء.

٣- الشيخ إبراهيم الغلاييني صاحب النهضة العلمية في غوطة وريف دمشق.

٤- الشيخ أمين كفتارو.

٥- الشيخ أمين الزملكاني.

وبقي الخلفاء الأربعة حول أميرهم الشيخ أمين الزملكاني حتى توفي علماً بأنه كان أقلهم علماً.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات شحٌ مطاع وهوىً متبع وإعجاب كل ذي رأي برأيه وهي أخطرهن».

إن زوال الأمم وزوال الأفراد وزوال الجماعات لا يكون بالكوارث التي نسميها الكوارث الطبيعية إنما يكون بإرادة إلهية، حيث إن الله لا يقبل من العبيد إلا العبودية التامة له فالاستكبار والأثرة والخيلاء والتعاظم والظلم هو الأثر الأكثر فعالية في زوال الأمم وفناء الشعوب، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

قال علي عزت بكوفتش: إن الله عز وجل هو الذي يصنع التاريخ ولا أحد غيره وكل النظريات الديالكتية في صنع التاريخ هراء لا طائل تحته، فالله يجتبي ويختار وما كان لهم الخيرة.

إن دولة الاستكبار العظمى ستزول عاجلاً أو آجلاً ويبقى الحق باقياً إلى يوم القيامة.

إن جميع الأمراض التي تصيب المسلمين هذه الأيام ما هي إلا نتيجة طبيعية للأثرة وحب الذات والأنانية المفرطة والغرور، فالغرور والتعالي والاستكبار ظل زائل، لذلك أتت العقوبة من الله على ما فرطنا نحن المسلمين، والآن نحصد ما قد زرعنا.

فلنعد إلى الله بذل وانكسار وتواضع لعل الله أن يرفع عنا ما نزل بنا من الفرقة والشحناء والبغضاء والحسد، الذي قال عنها رسول الله ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، وهي الحالقة لا أقول تحلق الرأس ولكنها تحلق الدين».

إن الذي أصابنا هو عقوبة عاجلة من الله عزوجل على ما فرطنا وما اكتسبنا من إثم وبغي وعدوان واستكبار وحقد وحسد وبعدٍ عن أخلاق الأنبياء وسيرهم والعقوبة الآجلة في الآخرة هي الأعظم.

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

❁ ❁ ❁

١٠ محاسن الأخلاق

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وجاء رجل إلى سيدنا عمر مع ابن عمه فقال لعمر (وهو أمير المؤمنين): يا عمر أعطني مما عندك فإنك لا تعطي بالسوية ولا تعدل بالرعية، فهمَّ عمر به، فقال ابن أخيه: يا أمير المؤمنين: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، فهذا من الجاهلين، وكان سيدنا عمر وقافاً عند كتاب الله.

١- المواهب الإلهية:

فما وهب الله لعبده موهبة مثل قلب هين لين وهذه القلوب اللينة الرحيمة تحب الله وتحب خلقه، لأن من أحب الصانع أحب صنعته، وأصحاب هذه القلوب هم أهل القرب من الله، إذا راموا الخيرات تسهلت لهم.

وقد جاء فيما أنزله الله في الكتب السالفة:

إن السموات والأرض لم تُطِق أن تحملني، وضِقنَ أن يسعنني، ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين وفي ذلك يقول أحدهم:

أُحبُ الحمى من أجل من سكن الحمى
ومن أجل أهليها تُحَبُّ المنازل

فقلَّ أن يُرى أحد من رجال الحق إلا وهو ذو قلب رقيق رحيم.

ويُستدل على صاحب هذا القلب بنور في وجهه فيكون سهل الخُلق،

لين العريكة بساماً ضحاكاً، وهم أكثر أهل الجنة لقول النبي ﷺ: «حُرمت النار على الهين اللين السهل القريب».

فاليسير من عمل هؤلاء يقوم مقام الكثير من أعمال غيرهم.

وقد قيل ذرة من أعمال أهل القلوب توازي عمل الثقلين، لأنه يغلب عليهم الذل والانكسار والتواضع ويقل فيهم التكبر والتجبر وخبث الباطن.

أما القسم الآخر المتكبرون والمتجبرون فيلاحظ من قسوة قلوبهم جمود الوجه فترى وجه أحدهم كأنه صفحة لبنة، أو حجر قد تصور منه وجه لا ماء فيه فلا يكاد صاحب هذا القلب يبتسم ولا يضحك.

٢- القربات إلى الله:

وبعد موهبة الله للعبد القلب الهين اللين فإن من أحب القربات إلى الله اصطناع المعروف جبراً للقلوب المنكسرة وإطعام ذوي الأكباد الجائعة وإدخال السرور على المساكين المحرومين فهذا القسم من الخير له تأثير عجيب على حياة القلوب.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي».

وقال ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء وصدقة السر تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر، فارحم الخلق وتحنن عليهم فالراحمون يرحمهم الرحمن ومن لا يَرحم لا يُرحم».

وقد ورد في الحديث أن بغياً من بغايا بني إسرائيل رأت كلباً يلهث من العطش، فسقته فشكر الله تعالى لها وغفر ذنبها.

فانظر إلى رحمة الله كيف نزلت بهذه المرأة الخاطئة لرحمتها بهذا المخلوق المحتقر فمن ظنك بالأخيار من أبناء جنسك وما ظنك بأخيك في الله، فعليك بالرحمة وسماحة الخلق، وسلامة الصدر واحذر خطايا القلوب وخفايا الذنوب.

قال أحدهم: يا صاحب الذنوب الخفية احذر العقوبة الخفية.

٣- محاسن المعاملات وجميل الأخلاق:

وبعد اصطناع المعروف للناس يأتي محاسن المعاملات والأخلاق.

فمن أحسن المعاملات: تواضع ذوي الأقدار للأخيار المستضعفين، والفقراء المساكين كعيادة المريض المسكين، وتشييع جناز الغريب الفقير، وزيارة ذوي الخمول في الذكر.

قال الله في بعض الكتب المترلة: «سر ميلاً وعد مريضاً وسر ميلين وشيع جنازة وسر ثلاثة أميال وأجب دعوة وسر أربعة أميال وزر أخاً في الله».

ويروى أن النبي سليمان كان إذا دخل بيت المقدس عَمَد إلى حلقة فيها الضعفاء والمكفوفين وأهل المسكنة فيجلس إليهم ويقول مسكين جالس مساكين.

وأخيراً: يا من قد انتصب لهداية العباد إلى مولاهم، ابدأ بنفسك، واحذر أن تقول شيئاً وتخالفه فعلاً وما أحسن ما قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها	فإن انتهت عنه فأنت حكيم
تصف الدواء لذي السقام ذوي الضنا	كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تُصلح بالرشاد عقولنا	أبداً وأنت من الرشاد عديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عارٌ عليك إذا فعلت عظيم
فهناك يُسمعُ ما تقول ويُقتدى	بالقول منك وينفعُ التعليم

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

١١ أخلاق الصوفية

١- من أحسن أخلاق الصوفية التواضع.

٢- المداراة واحتمال الأذى من الخلق.

٣- الإيثار والمواساة والشفقة والرحمة على خلق الله.

٤- التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة.

٥- البشر وطلاقة الوجه للناس جميعاً.

٦- السهولة ولين الجانب وترك التعسف والتكلف.

٧- الإنفاق والبذل دون إسراف، وترك الإدخار.

٨- القناعة باليسير من الدنيا وترك البذخ والترف والتبذير.

٩- ترك المراء والجدال والغضب واعتماد الرفق والحلم في كل الأمور.

١٠- التودد والتآلف وموافقة الإخوان وترك المخالفة.

١١- شكر المحسن على الإحسان والدعاء له.

١٢- بذل الجاه والمنصب للمسلمين وللإخوان.

١٣- الآداب والأخلاق عند أهل التصوف (من زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف).

١- من أحسن أخلاق الصوفية التواضع:

ما لبس العبد لباساً أفضل من التواضع. وقد روي عن النبي ﷺ أنه أتاه جبريل فقال: إن الله يخيرك بين أن تكون ملكاً نبياً أو عبداً نبياً، فقال بل عبداً نبياً.

وعن النبي ﷺ قال: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا ولا يبغي بعضكم على بعض».

وكان من تواضع رسول الله ﷺ أن يجيب دعوة الحر والعبد ويقبل الهدية ولو كانت جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليه ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأَمة والمسكين وكان يقول: «لو دعيت إلى كراع لأجبت»، ودعاه أحد الأصحاب ولم يجد ما يقدمه إلا الخل فأكل رسول الله ثم قال: «نعم الإدام الخل» جبراً لخاطره.

وقال رسول الله ﷺ: «إن من رأس التواضع: أن تبدأ بالسلام على من لقيت وترد السلام على من سلَّم عليك وأن ترضى بالدون من المجلس وأن لا تحب المدحة والتزكية والبر».

وقال ﷺ: «طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وذل نفسه من غير مسكنة».

وحقيقة التواضع: هي رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة، فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره، والضعة وضع الإنسان نفسه مكاناً يُزري به ويفضي إلى تضييع حقه.

٢- المداراة واحتمال الأذى من الخلق:

فقد قال النبي ﷺ: «أُمرت بمدارة الخلق كما أُمرت بأداء الفرائض».

قال أنس: خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته، وكان يقول: قدرَّ الله وما شاء فعل، وكان رسول الله من أحسن الناس خلقاً.

وكان يقول ﷺ: «المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

وفي الخبر: «أيعجز أن يكون أحدكم كأبي ضمضم» فقيل: وماذا كان يصنع أبو ضمضم؟ قال: «كان إذا أصبح قال: اللهم إني تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمني، فمن ضربني لا أضربه ومن شتمني لا أشتمه ومن ظلمني لا أظلمه».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم على من تحرم النار؟ على كل هين لين سهل قريب».

وحضر إلى النبي رجل فكلمه النبي فأرعد فقال له النبي: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

٣- الإيثار والمواساة والشفقة والرحمة على خلق الله:

قال أبو يزيد: ما غلبني أحد ما غلبني شاب من أهل بلخ فقال: يا أبا يزيد ما حد الزهد عندكم؟ قال: إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت: ما حد الزهد عندكم؟ فقال: إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا.

ويروى أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني جائع فأطعمني، فقال النبي ﷺ: «من يضيف هذا الرجل هذه الليلة، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله، فقال لزوجته: هذا ضيف رسول الله...

فقال النبي ﷺ: «لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة وأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

٤- التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة:

قال سفيان الثوري: الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق، خذ شيئاً وهات شيئاً.

وقال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يُظلم بمظلمة فيعفو ويصفح إلا أعزه الله ونصره».

وقال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها».

ورُوي عن رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق «أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك».

٥- البشر وطلاقة الوجه:

فالصوفي بكاؤه وحزنه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس.

قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان أنزل الله مئة رحمة، تسع وتسعون منها لأبشهما في وجه صاحبه ورحمة واحدة للآخر».

وقال ﷺ: «كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في دلو أخيك».

٦- السهولة ولين الجانب وترك التعسف والتكلف:

والتزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم، فقد كان رسول الله ﷺ يقول: «أما إني أمزح ولا أقول إلا حقاً، (قصة زاهر بن حرام).

وقال النبي ﷺ له: «لكل أهلِ حضر بادية وبادية آل محمد زاهر ابن حرام».

وجاء رجل إلى رسول الله فقال: أحملني على جمل فقال: «أحملك على ابن الناقة» فقال: أقول أحملني على جمل وتقول أحملك على ابن الناقة، فقال ﷺ: «وهل الجمل إلا ابن الناقة».

وسُئلت عائشة رضي الله عنها كيف كان رسول الله إذا خلا في البيت؟ قالت: كان ألين الناس بساماً ضحاكاً وكان في حاجة أهله في البيت.

قال رسول الله ﷺ: «الحياء والعي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق». البذاء- الفحش، البيان هناك: كثرة الكلام والتكلف للناس.

٧- من أخلاق الصوفية الإنفاق من غير إقتار:

قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم إلا له ملكان يناديان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

وقال رسول الله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

٨- ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا:

قال رسول الله ﷺ: «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

وقال ﷺ: «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً ثم صبر عليه».

وقال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

٩- ومن أخلاق الصوفية ترك المراء والجدل والغضب:

قال رسول الله ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتاً في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بُني له في وسطها ومن حسنُ خُلقه بُني له بيت في أعلى الجنة».

قال ﷺ: «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو ليصرف وجوه الناس إليه أدخله الله جهنم».

فانظر كيف جعل رسول الله الممارة مع السفهاء سبباً لدخول النار.

وبعد فهذه أخلاق الصوفية فأين نحن منها أم أنه ما بقي لدينا إلا الاسم.

أما الديار فإنها كديارهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

أؤلئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وأنقل لكم ما كتبه ابن الجوزي من كتاب اللطائف، لقد قيل له يوماً قلل من ذكر أهل البدع والشطحات مخافة الفتن فأنشد يقول:

أتوب إليك يا رحمن مما ... جنيت فقد تعاظمت الذنوب

وأما من هوى ليلى وحبي ... زيارتها فإني لا أتوب

❁ ❁ ❁

١٢ الكبر والإعجاب

إن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل، وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح، ولا قبول لتأديب، لأن الكبر يكون بالمنزلة، والعجب يكون بالفضيلة، فالمتكبر يُجلُ نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين.

وأسوأ ما يكون الكبر والإعجاب هو عند العلماء وعند الدعاة، فهو السم القاتل للدعوة والعلم، وأسوأ خلق يتخلق به العالم أن يكون متكبراً، أو معجباً بنفسه ورأيه وعلمه، ولذلك وصفهم الغزالي بأنهم علماء السوء.

وكان الشيخ أمين كفتارو رحمه الله يقول: طرقت جميع الأبواب إلى الله فوجدتها مزدحمة فأتيت إلى الله من باب الذل والانكسار والتواضع فرأيته فارغاً.

وأعظم فتنة يُفتن بها العلماء هي الكبر والإعجاب وليس لذلك دواء، وهي فتنة الشيطان الذي رفض امتثال أمر الله للسجود لآدم وقال أنا خيرٌ منه.

وقد يصل الرجل إلى أعالي ذرا العلم والفهم ويصبح من عظماء الرجال فيدخل الكبر والإعجاب إلى نفسه فيترل إلى حضيض الفسوق والعصيان وما ذلك إلا جزاء من الله له.

أما الكبر: فيكسب المقت ويُلهي عن التألف ويوغر صدور الإخوان وحسبك بذلك سوءاً عن استقصاء ذمه، لذلك قال النبي ﷺ لعمه العباس: «أنهاك عن الشرك بالله والكبر فإن الله يحتجب منهما».

وحكي عن عبد الله بن الشخير فقد نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال له: ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله

فقال المهلب: أما تعرفني فقال: بل أعرفك: أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعَذِرة.

عجبت من معجبٍ بصورته ... وكان بالأمس نطفة مذرة
وفي غد بعد حسن صورته ... يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته ... ما بين ثوبيه يحمل العذِرة

والإعجاب بالنفس يُخفي المحاسن، ويظهر المساوئ، ويُكسب المذام ويصد عن الفضائل، وروي عن النبي ﷺ: «إن العجب ليأكل الحسنات».

وقال ثلاث مهلكات: «شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه» وهي أخطرهن كما تأكل النار الحطب.

وقال بزرجمهر: النعمة التي لا يحسد صاحبها: التواضع، والبلاء الذي لا يُرحم صاحبه العجب.

ومن أقوى الأسباب التي تدفع إلى الكبر: علو اليد، ونفوذ الأمر وقلة مخالطة الأكفاء، وحكي أن قوماً مشوا خلف علي بن أبي طالب فقال: أبعدوا عني خفق نعالكم فإنها مُفْسِدة لقلوب حمقى الرجال، ومشوا خلف ابن مسعود فقال: ارجعوا فإنها ذِلة للتابع وفتنة للمتبوع، وأتى رجل إلى النبي فأصابته رِعدة فقال له ﷺ: «هون عليك فإنما أنا ابن امرأة كان تأكل القديد»، وقد قال ذلك حسماً لمواد الكبر، وقطعاً لذرائع الإعجاب، وكسراً لإسراف النفس، وتذليلاً لسطوة الاستعلاء.

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه نادى للصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني أرعى على خالاتٍ لي من بني مخزوم، فيقُبض لي القبضة من التمر

والزبيب، فأظل اليوم وأيَّ يوم، فقال له عبد الرحمن بن عوف يا أمير المؤمنين: ما زدت أن تقصَّرت بنفسك. قال عمر: ويحك يا ابن عوف: إني خلوت فحدثتني نفسي، فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها نفسها.

ومن أسباب العجب: مديح المتقربين وهو أقوى سبب للإعجاب فمديح المتقربين، وإطراء المتحلقين، الذين جعلوا النفاق عادة والتملق خديعة، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والتمادح فإنه الذبح، إن كان أحدكم مادحاً أخاه لا محالة، فليقل أحسبُ ولا أزكي على الله أحداً».

وقال عمر: المدح ذبحٌ، ولذلك كره أهل الفضل التجاوز في الثناء.

وكان سيدنا أبو بكر إذا مُدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

والعاقل يسترشد بإخوانه النصحاء ليرده حقيقة أمره، وقال عمر: رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي.

وقال ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيه عيباً أصلحه».

ومن أسباب الكبر: الولاية والمنصب الرفيع، فقد تُحدثُ الولاية أخلاقاً مذمومة لأن تقلب الأحوال تُظهر مكنون الأخلاق.

قال بعض الحكماء: في تقلب الأحوال تُعرف جواهر الرجال.

ومهما بلغ الرجل من العلم والمعرفة فإذا امتزجت نفسه بالكبر والعجب فقد يفضي به ذلك إلى الحمق والجهل فيرديه علمه.

فقد روى أنه قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق، فقال: خير منزل لو كان الله بلَّغني قتل أربعة، فتقربت إليه بدمائهم منهم مقاتل بن مسمع ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له أرديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه: لمثل هذا فليعمل العاملون.

وعبد الله بن زياد: خوَّف أهل البصرة أمرٌ فخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد: أكثر الله فينا مثلك، فقال: لقد كلفَّتم الله شططاً، ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالساً في طريق فمرت امرأة فقالت: يا عبد الله كيف الطريق إلى موضع كذا، قال: يا هَنَاهُ مثلي يكون من عبيد الله.

وأبو سحال الأسدي أضَّل راحلته فلم يجدها فقال: والله إن لم يَرُدَّ إليّ راحلتي لا صليت له صلاة أبداً، فالتمسها الناس فوجودها فقالوا له: قد رد الله راحلتك فصل، فقال: إن يميني يمين مُصرٍّ.

فانظر إلى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب والتكبر إلى حمق، صاروا به نكالاً في الأولين، ومثلاً في الآخرين، ولو تصور المعجب المتكبر ما فُطر عليه من جبلة وبُلي به من مِهنة لخفض جناحه، قال الأحنف: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين، كيف يتكبر؟

١٣ في ظلال سورة المؤمنين

سورة المؤمنون: جو هذه السورة هو جو البيان والتقرير والجدل الهادئ والمنطق الوجداني واللمسات الموحية للفكر والضمير، ويغلب على هذه السورة موضوع الإيمان وصفات المؤمنين:

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: إنه الوعد الصادق، وعد الله فلا يخلف الله وعده، الفلاح في الدنيا والآخرة، وفلاح الفرد المؤمن والجماعة المؤمنة، الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجده في واقع حياته، ويشمل ما يعرفه الإنسان من معاني الفلاح وما لا يعرفه مما يدخره الله له في الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال: انطقي، قالت: قد أفلح المؤمنون فقال الله: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل. ثم تلا: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقد ذكر الله تعالى سبع صفات للمؤمنين:

سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن ثم قرأت ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾: فإن المؤمن يستشعر قلبه رهبة الموقف بين يدي الله، فيسكن ويخشع ويسري هذا إلى الجوارح والملامح ويغشى روحه جلال الله فتختفي من ذهنه جميع الشواغل ويتوارى عن حسه في تلك الحضرة القدسية فلا يشهد إلا الله ولا يحس إلا به عندئذ تتصل الذرة التائهة بمصدرها وتجد الروح الحائرة طريقها ويعرف القلب الموحش مثواه

فتتضاءل القيم والأشياء والأشخاص عنده إلا ما يتصل منها بالله، وهذا معنى من معاني أهل التصوف ومقاماتهم: الفناء بالله.

الصفة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾: لغو القول ولغو الفعل ولغو الاهتمام، إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر، له ما يشغله من ذكر الله وجلاله واستغراق العقل في مشاهد الكون وله ما يشغله من تكاليف العقيدة في تطهير القلب وتزكية النفس وتنقية الضمير وتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتكاليف الجهاد، فالطاقة البشرية محدودة فهي إما أن تنفق في إصلاح الحياة وترقيها وإما أن تنفق في اللغو والهذر واللهو، والمؤمن مدفوع إلى إنفاقها في البناء.

قال أحد الصحابة يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك وابك على خطيئك»، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢].

الصفة الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾: فالزكاة طهارة للقلب وللمال، طهارة القلب من الشح والاستعلاء على حب الذات وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر وثقة بالله في العوض، وطهارة للمال أيضاً فتجعل ما بقي منه طيباً حلالاً مباركاً لا يتعلق به حق ولا تحوم حوله شبهة فهي تأمين اجتماعي للفرد وضمان للعاجزين ووقاية للمجتمع من التفكك والانحلال، قال رسول الله: «ما نقص مال من صدقة».

الصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾: وهذه طهارة الروح والبيت والجماعة بحفظ الفروج من دنس المباشرة الحرام، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير الحلال وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات وفساد البيوت وضياع الأنساب.

وعندما تنطلق الشهوات بغير حساب فإن الجماعة معرضة للفساد فلا أمن فيها للبيت ولا حرمة للأسرة، والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات جماعة قذرة هابطة لا تصلح للرقي البشري. وتنظيم الدوافع الجنسية بصورة نظيفة مثمرة، ويحدد القرآن المواضع النظيفة التي يحل للرجل أن يأتيها: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾. ومسألة الزواج لا تثير شبهة ولا تستدعي جدلاً. أما مسألة ملك اليمين: فإن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمي، واسترقاق الحرب نظام دولي. إلا أن الإسلام جفف منابع الرق إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى.

وفي نظام الإسلام فإن الأَمَة تصل إلى مرتبة الحرية بأربع وسائل:

١- إذا مات سيدها وولدت له مولود.

٢- إذا أعتقها سيدها تطوعاً أو كفارة.

٣- إذا طلبت أن تكاتبه بالمال فافتدت به رقبتها.

٤- إذا ضربها على وجهها فكفارتها عتقها[1].

الصفة الخامسة والسادسة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾، والأمانات كثيرة وأولها أمانة الفطرة وهي فطرة مستقيمة شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته، عقلاً وروحاً وإحساساً والمؤمنون يرعون الأمانة فلا يدعون فطرتهم تنحرف عن استقامتها، فتظل قائمة شاهدة بوجود الخالق ووحدانيته ثم تأتي سائر الأمانات الاجتماعية تبعاً لتلك الأمانة الكبرى.

وكذلك فإن العهد الأول هو العهد الذي قطعه الله على البشر بالإيمان بوجوده وتوحيده وعلى هذا العهد تقوم جميع العهود والمواثيق الاجتماعية والمؤمن يجعل الله شهيداً عليه بالوفاء بالأمانة والعهد ويتولد ذلك من تقوى الله

(١) ومن أراد الزيادة فليرجع إلى كتاب: ظلال القرآن ص١٦٠.

وخشيته ولن تستقيم حياة الجماعة حتى تؤدى الأمانات وترعى العهود ويطمئن الإنسان حيث يتوفر الأمن والثقة والاطمئنان في المجتمع، قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاثة إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان».

الصفة السابعة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾: فلا يفوتونها كسلاً ولا يضيعونها إهمالاً، ولا يقصرون في إقامتها كما ينبغي، إنما يؤدونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن ومستوفية الأركان والآداب حية يستغرق فيها القلب، ومن صفات المنافقين أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم كسالا ولا يذكرون الله في الصلاة إلا قليلاً ولا يؤدون الصلاة في أوقاتها مع كامل السنن والأركان، ولأهمية الصلاة فقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وخُتمت بها بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه إلى الله.

وسُئل رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله فقال: «الصلاة على وقتها»، ثم قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾، و﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾.

تلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لها الفلاح، وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال.

صلاة الجماعة: عن ابن مسعود قال: مَن سرَّه أن يلقى الله غداً مسلماً فُليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادى بهن، فإن الله تعالى شرع لنبيكم

ﷺ سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهُوُر ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُوتى به يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف.

وقال رسول الله ﷺ: «من صلى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كُتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق».

وقال رسول الله ﷺ: «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما بينهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ثم انطلق معي برجال معهم حُزَمٌ من الحطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرِّق عليهم بيوتهم بالنار».

وقال ﷺ: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة».

وقال ﷺ: «الجفاء كل الجفاء، والكفر والنفاق، من سمع منادي الله ينادي إلى الصلاة فلا يُجيبه».

وقال ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها».

وعن أبيّ بن كعب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً الصبح فقال: أشاهد فلان قالوا: لا، قال: أشاهد فلان قالوا: لا قال: «إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على الركب».

وقال رسول الله ﷺ: «بحسب المؤمن من الشقاء أن يسمع المؤذن يُثوِّبُ بالصلاة فلا يجيبه»[1].

---

(١) راجع كتاب الترغيب والترهيب ص٢٥٥.

١٤ رجال رباهم رسول الله

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

إن من يريد أن يقلِّب صفحات التاريخ ليرى العظماء فلن يقع بصره على أحدٍ منهم أعظم من محمد ﷺ، وهذا ما أكده وأقر به أمريكي مسيحي غير عربي ولا مسلم فقد درس عظماء العالم منذ بدء الخليقة ورتبهم حسب تأثيرهم ونفعهم للعالم في كتاب المئة الأوائل وكان سيدنا محمد ﷺ ذا الترتيب الأول.

إن عظمة النبي محمد ﷺ لا تكمن فقط في إنشاء الدولة والقضاء على الفقر والجهل والخرافة والمرض والفرقة، إنما تكمن أيضاً في أمرين اثنين وهما:

أولاً: تربية رجال وجيل من الرجال فريد من نوعه في القوة والشجاعة والسخاء والأخلاق والعلم والعقل والتضحية ونشر الخير والفضيلة في ربوع الدنيا وهو جيل الصحابة الكرام الذي لم تعرف الدنيا قبله ولا بعده مثيلاً له. فهم أشرف وأقدس وأعظم وأتقى وأنقى من مشى على الأرض بعد الرسل والأنبياء.

ثانياً: إن تأثير النبي محمد ﷺ لم يتوقف وإنما امتد إلى جميع الأجيال بعد الصحابة الكرام وعلى طول الزمن إلى ١٤٠٠ عام وما زال تأثير النبي علماً وعملاً وعقلاً وروحاً ساري المفعول حتى يومنا هذا، وأرض فلسطين والجزائر ودماء الشهداء فيها شاهدة على ذلك.

ونتحدث الآن عن ثلة قليلة من هؤلاء العظماء ونبدأ بالعظيم:

بلال بن رباح: فقد عرَّفنا بنفسه سلفاً وقال: إنما أنا حبشي، كنت بالأمس عبداً.

وكان عمر بن الخطاب يقول عنه إذا ذكر أبو بكر: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا.

واليوم إذا سألت الطفل المسلم في أي بقعة من أرض الدنيا: مصر، تركيا، إيران، أمريكا، عن بلال يقول بداهة: هو مؤذن رسول الله ﷺ وهو الذي كان سيده يعذبه بالصحراء ليرده عن دينه فيجيبه: أحد، أحد، لم يكن قبل الإسلام أكثر من عبد رقيق فأصبح بعد تربية النبي سيداً عظيماً تعرفه أمم الأرض كلها.

سعد بن أبي وقاص: إنه أول من رمى بسهم في سبيل الله وهو الوحيد الذي قال له رسول الله ﷺ: «إرم سعد فداك أبي وأمي»، ودعا له بقوله: «اللهم سدد رميته، وأجب دعوته»، وهو الذي اختاره عمر ليكون قائد جيوش إلى بلاد فارس وقد سماه عبد الرحمن بن عوف: (الأسد في براثنه)، وعندما أسلم أعلنت أمه أنها ستصوم عن الطعام والشراب حتى يعود إلى دين قومه، فاقترب منها وقال: تعلمين والله يا أماه، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي إن شئت أو لا تأكلي.

معاذ بن جبل: قال رسول الله ﷺ يوماً: «يا معاذ والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول عقب كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» ولقيه رسول الله ﷺ يوماً فقال: كيف أصبحت يا معاذ؟ قال؟ أصبحت مؤمناً حقاً يا رسول الله، قال النبي ﷺ: «إن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك، فقال: ما أصبحت إلا ظننت أني لا أمسي، ولا أمسيت إلا ظننت أني لا أصبح، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها، وأرى أهل الجنة في الجنة ينعمَّون وأهل النار في النار يعذبون. فقال النبي: «عبد نور الله قلبه: عرفت فالزم».

ومن وصاياه: احذروا زيغ الحكيم، واعرفوا الحق بالحق فإن للحق نوراً.

وعند سكرات الموت: بدأ يناجي ربه ويقول: اللهم إني كنت أخافك لكنني اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات ونيل المزيد من العلم والإيمان والطاعات، ثم بسط يمينه وقال: مرحباً بالموت حبيبٌ جاء على فاقه.

المقداد بن الأسود: وقف رسول الله ﷺ في غزوة بدر وقال: أشيروا علي أيها الناس قام المقداد وقال: يا رسول الله: امضِ لم أراك الله فنحن معك ولا نقول لك كما قالت بنو إسرائل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون بل نقول: إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سِرت بنا إلى برك الغِماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ولنقاتلن عن يمينك ويسارك وبين يديك ومن خلفك حتى يفتح الله لك.

وهو الذي قال له النبي ﷺ: «إن الله أمرني بحبك، وأنبأني أن يُحبك».

حمزة بن عبد المطلب: هو أسد الله وسيد الشهداء، عندما قتل في غزوة أحد ومثَّل الكفار بجثته، وقف النبي ﷺ وقال: «لأن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم: فنزلت الآية: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٧].

وفي طريقه من أحد مر النبي بسيدة من بني دينار استشهد في المعركة: أبوها، وزوجها، وأخوها، وحين أبصرت المسلمين عائدين سارعت نحوهم

تسألهم عن أنباء المعركة، فنعوا إليها الزوج والأب والأخ فقالت: وماذا فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً هو بحمد الله كما تحبين قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، واقترب منها رسول الله ﷺ، فلما رأته أقبلت نحوه تقول: كل مصيبة بعدك أمرها يهون.

لقد كان ذلك أجمل عزاء لعمه حمزة، امرأة ضعيفة، مسكينة، تفقد في ساعة واحدة أباها وزوجها وأخاها ثم يكون ردها: ماذا فعل رسول الله ﷺ.

حذيفة بن اليمان: هو عدو النفاق والمنافقين وكان سر المنافقين عنده من النبي ﷺ. قال يوماً: إياكم ومواقف الفتن، قالوا: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويمدحه بما ليس فيه.

وعند موته أحضروا له الكفن فوجدها جديدة فارهة فقال: ما هذا لي بكفن إنما يكفيني لفُافتان بيضاوان ليس معهما قميص، فإني لن أُترك في القبر إلا قليلاً، حتى أُبدل خيراً منهما أو شراً منهما ثم قال: مرحباً بالموت حبيب جاء على شوق فلا أفلح من ندم.

خالد بن الوليد: جاء النبي مسلماً فقال له النبي ﷺ: «لقد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير»، فقال: استغفر لي كل من أوضعت فيه من صد عن سبيل الله: قال النبي ﷺ: «اللهم اغفر لخالد ذلك».

وقال عنه النبي ﷺ: «نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد سيف من سيوف الله سلَّه الله على الكفار والمنافقين».

ومن أقواله: ما ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس، أو أبشَّر بوليد بأحب إليَّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبِّحُ بهم المشركين.

وعند موته تنهمر من عينيه الدموع ويقول: لقد شهدت كذا زحفاً وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح أو رميةُ سهم ثم هانذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

ووقفت أمه على القبر تودعه وتقول:

أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كَبَتْ وجـــوه الرجـــال
أشجاع؟ فأنت أشجع من ليث غضنفر يـــذودُ عـــن أشـــبال
أجواد؟ فأنت أجود من ســـيل غـــامر يـــسيلُ بـــين الجبـــال

فسمعها عمر فازداد قلبه خفْقاً، ودمعه دفقْاً وقال لها: صدقتِ والله إنْ كان لكذلك ثم قال: رحم الله أبا سليمان ما عند الله خيرٌ مما كان فيه، ولقد عاش حميداً ومات سعيداً.

أبو الدرداء: حكيم هذه الأمة: ومن أقواله قال: أسلمت مع الـــنبي ﷺ وأنا تاجر وأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة فلم يجتمعا، فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة، ألا إني لا أقول إن الله حرم البيع، ولكـــنني أحـــبُ أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وكان يدعو ويقـــول: اللهم إني أعوذ بك من شتات القلب وسُئل وما شتات القلـــب فأجـــاب أن يكون لي في كل وادٍ مال.

وعندما فتحت قبرص وحُملت الغنائم إلى المدينة رأى الناس أبو الدرداء يبكي فقال أحدهم: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام؟ فأجابه: ما أهونَ الخلق على الله إذا هم تركوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهـــا الملـــك، تركتْ أمر الله فصارت إلى ما ترى.

وكان يقول: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يعظـــم حلمك ويكثر علمك وتُباري الناس في عبادة الله.

وكان يقول: التمسوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله نفحات يصيب بها من يشاء.

وكان يقول: معاتبة الأخ خير لك من فقده، ومَن لك بأخيك كلـــه، أعط أخاك وَلن له ولا تطع فيه حاسداً فتكون مثله، غداً يأتيـــك المـــوت، فيكفيك فقده.

وكان يقول: إني أبغضُ أن أظلم أحداً، ولكني أبغض أكثر أن أظلم من لا يستعينُ عليَّ إلا بالله العلي الكبير.

وكان إذا أطرى الناس تُقاه وسألوه الدعاء أجابهم في تواضع: لا أحسن السباحة وأخاف الغرق.

فصلى الله على سيدنا محمد مربي هؤلاء الرجال.

أولئك آبائي فجـــئني بمثلـــهم إذا جمعتنا يا جريـــر المجـــامع

قال رسول الله ﷺ: «وددت لو أنـــي أرى إخـــواني» قـــالوا: ألـــسنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي، إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني يود أحدهم لو رآني أن يفتدي ذلك بأهله وماله».

❁ ❁ ❁

١٥ قصة ذي البجادين

ذو البجادين[١]: الصحابي: عبد الله المزني.

كان ذو البجادين يتيماً في الصغر، فلما عمَّه الفقر كفله عمهُ، فنازعته نفسه في اتباع الرسول ﷺ فهمَّ بالنهوض فإذا بقية المرض مانعة لعمه.

فقال لسان التسويف قفي حتى يتقدم العمُّ، فلما اكتملت صحة العم، نفَدَ صبر المشتاق فقال: يا عم كنت أنتظر سلامتك بإسلامك، فقال العم: لئن أسلمتَ لأنتزعن منك كل ما أعطيتك، فصاح لسان عزمه: نظرةٌ من محمد عليه الصلاة والسلام أحب إليَّ من الدنيا وما فيها وهذا مذهب المحبين إجماعاً من غير خلاف:

ولو قيل للمجنون: ليلى ووصلَها ... تريد أم الدنيا وما في طواياها

لقال غبارٌ من تراب ديارها ... أحبُّ إلى نفسي وأشفى لرؤياها

فعاد العم في هبته حتى جرده من الثياب فناولته الأم بجاداً لها فقطعه نصفين واتزر بواحدة وارتدى بأخرى وخرج في حلةٍ (رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين مطرود عن الأبواب لو أقسم على الله لأبره). ولسان حاله يقول:

وليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضبان

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الوصل فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

ونادى صائح الجهاد في جيش العسرة فتتبع مسيرة الأحباب راكباً عجز العزم مع الضجر، والمحب لا يرى طول الطريق إنما يتلمح المقصد.

---

(١) من كتاب اللطائف لابن الجوزي.

فنزل فيه ملك الموت بتوقيع: طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إليهم أشد شوقاً. فنزل رسول الله ﷺ يمهد له اللحد وقال؟ لأبي بكر وعمر: أدنيا إليَّ أخاكما، ثم قال: اللهم إني أمسيت عنه راضياً فارضَ عنه. فقال ابن مسعود: ليتني كنت صاحب هذا اللحد.

وهذا بطل آخر إنه **خُبيب بن عدي**: فقد أعدَّ المشركون من جذوع النخل صليباً أثبتوا فوقه خبيباً وشدوا فوق أطرافه وثاقه واحتشدوا حوله يشحذون رماحهم، واقترب منه أحد زعمائهم قائلاً: أتحب أن محمداً مكانك وأنت سليم معافى في أهلك فصاح قائلاً: والله ما أحب أني في أهل وولدي ومعي عافية الدنيا ونعيمها ويُصاب رسول الله بشوكة. ثم قال: اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً وأنشد يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْوٍ ممزعِ

ثم قال: اللهم إنا قد بلَّغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يُصنع بنا:

أؤلئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أما اليوم فهؤلاء الأبناء البررة يقومون بما قام به آباؤهم في غزة ففي اليوم العاشر من القصف والتدمير يقول: إسماعيل هنية: والله: لو عُلقنا جميعاً على أعواد المشانق فلن نستسلم ولن نرفع الراية البيضاء وسنبقى نجاهد حتى آخر قطرة في عروقنا، والله إني لأسمع آيات الله تُتلى كأنما تنزل علينا الآن من السماء.

لله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

❁ ❁ ❁

١٦ معاقون ولكنهم عظماء

إن التفاضل بين الناس في هذه الأيام هو بالمال أو الجاه أو النسب أو شكل أو بياض البشرة أو الجمال أو القوة أو تمام الأعضاء أو النطق باللسان أو بكثرة الأولاد.

ولكن القاعدة الإلهية للتفاضل عند الله عز وجل والتي لا تزول على مر الأزمنة ودوام الحياة هي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]، وقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقال رسول الله ﷺ: «ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى»، وقال لأهله: «اشتروا أنفسكم من الله فأنا لا أغني عنكم من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتونني بأنسابكم»، وقال:«رُبَّ أشعث أغبر ذي طريق مطرود عن الأبواب لو أقسم على الله لأبر قسمه ومنهم البراء بن

مالك»، وقال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس»، وقال: «ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب»، وقال: عن الفخر بالجاهلية: «دعوها فإنها منتنة»، وقال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

من ذلك يتبين أن قيمة الإنسان ليست بشكله وطوله وعرضه وماله وعرْقه ولونه ونسبه وكثرة أولاده ومنصبه وجاهه فكل ذلك ظلٌ زائل، إنما قيمته بعقله وفكره وعلمه وروحه وتقواه وصلته بالله وبما يقدم للإنسانية ومجتمعه من خير وعطاء وعلم ومعرفة.

وعلى ذلك فسوف أقدم لكم نماذج من هؤلاء المعوقين العظماء الذين تزدري أعينكم عند رؤيتهم ولكنهم عظماء بما قدموا للإنسانية من معرفة وعلم وبما عملوا لدينهم وبتلك الروح الزكية لصلتهم بالله، وبالرغم من أنهم معاقون فإن التاريخ قد خلَّد ذكرهم وسوف يبقى ذكرهم على مر العصور والأجيال حتى يرث الله الأرض ومن عليها. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فلهم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ومن هؤلاء:

١- عبد الرحمن بن عوف:

كلنا نعرفه ولكن لا نعرف أنه معاق أعرج وأهتم لا يجيد النطق وذلك إثر إصابته يوم أحد بعشرين جراحاً، خرج منها مكسور الرجل أعرج ومكسور مقدمة الأسنان ومقطوع الشفة ليصبح أهتم.

سماه رسول الله: سيد المسلمين، ومرة صلى خلفه وارتضاه إماماً وبشره بالجنة، واختاره سيدنا عمر للخلافة من بين الستة، كان يتصدق بالمال الكثير وقسم ماله أربع مرات يتصدق بالنصف ويُبقي لنفسه النصف، وكان ثلث

أهل المدينة يستدينون منه والثلث الآخر يفي عنهم دينهم والثلث الثالث يعطيهم، يروى عن عائشة بينما هي في بيتها سمعت صوتاً في المدينة، قالت ما هذا؟ قالوا: عيرٌ لعبد الرحمن بن عوف وكانت سبع مئة بعير فارتجت المدينة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل عبد الرحمن الجنة حبواً، وعندما سمع كلامها جعل القافلة كلها في سبيل الله».

٢- ابن أم مكتوم:

الصحابي الأعمى الذي عاتب الله رسوله بشأنه وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢]، وكان يؤذن مع بلال للصلوات وخاصة صلاة الفجر كأنما يشم رائحة الفجر بأنفه، ويروى أن رسول الله جعله أميراً للمدينة المنورة أثناء غزواته عشر مرات، فكان يصلي بالناس ويتفقد أمورهم.

٣- الأحنف بن قيس:

تابعي كان سيداً في قومه لعقله وحلمه هذا ما نعرفه عنه ولكن هل تعلمون أنه كان أحنف (مائل الرجلين) ضئيلاً، صغير الرأس، متراكب الأسنان، ناتئ الخد، منخسف العين، أعور بعين واحدة ولكنه كان سيد قومه وكان حيياً عفيفاً مترفعاً عن السفاسف والدنايا وكان يقول: جنبوا مجالسنا ذكر النساء وذكر الطعام فإني أبغض الرجل يكون وصَّافاً لفرجه وبطنه، وكان إذا غضب غضب لغضبه مئة ألف سيف من بني سعد لا يسألونه فيم غضب، وكان يقول: ثلاث فيَّ ما أذكرهن إلا لمعتبر: ما أتيت باب سلطان إلا أن أُدعى، ولا دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما، وما أذكر أحداً بعد أن يقوم من عندي إلا بخير.

٤- عطاء بن أبي رباح:

كان أسود اللون، أشل، أعور، أعرج، ولكنه كان سيد التابعين ومفتي الحرم المكي، والمقدم في الصالحين مع الفقه والورع، تتلمذ على أكثر من مئتين من الصحابة الكرام، ويقال بأن امرأة في مكة سألت ابن عباس مسألة فقال: يا أهل مكة تجتمعون عليَّ وعندكم عطاء.

وكان أعلم التابعين بالمناسك فكان أمراء بني أمية يأمرون منادياً يصيح: لا يُفتي الناس بالحج إلا عطاء بن أبي رباح.

والذين أخذوا عنه كثير ومنهم أبو حنيفة والإمام الأوزاعي ومالك بن دينار والزهري وقتادة وآخرون كثير.

٥- قتادة بن دعامة:

كان عالماً بالقرآن حفظاً وتفسيراً، وكان رأساً باللغة العربية وحجة في الحديث الشريف وعالماً بالأنساب، ولكنه كان أكمه (يعني أعمى البصر ولادة) لم يرَ النور في عينيه و لم يرَ الدنيا وما فيها مطلقاً.

أعطاه الله ذاكرة خارقة أعظم من الكمبيوتر هذا اليوم، يُقال أنه رحل إلى سعيد بن المسيب ليأخذ عنه وأقام عنده ثمانية أيام وفي اليوم التالي قال له سعيد: ارتحل عني يا أعمى فقد أنزفتني (أخذت مني علمي كله).

٦- سفيان بن عيينة:

كان محدث الحرم المكي وعالماً بالحديث النبوي وحافظاً للقرآن. ولكنه كان بعين واحدة (أعور) ومرة دخل صبي مجلسه فاستخف التلامذة به، فقال سفيان معلماً: دعوه، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم، ثم قال للصغير يداعبه: لو رأيتني. ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدينار،

ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفـــار، محـــبرتي كالجوز، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا أتيت قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير، فقد قال ذلك جبراً لخاطر الصغير وتشجيعاً له على طلب العلم.

شهد أكثر من ثمانين وقفة في عرفات، وكان يقول كل موقف: اللهم لا تجعله آخر العهد بك حتى كان أحد الأعوام استحيا من الله أن يـــدعو بهـــذا الدعاء، فكان هو العام الذي توفي فيه.

٧- الإمام الشاطبي:

ولد في الأندلس وولد أكمه لا يرى النور في بصره، وحزن أهله مـــن ذلك، ولكن بصيرته وذكاءه كانا أقوى بكثير من عينيه، قال عنـــه الإمـــام الذهبي: كان يتوقد ذكاء وله الباع الأطول في فن القراءات والنحو والفقـــه والحديث والنظم الرائق، ويروي التاريخ أنه كان يحفظ كتباً لو حُملت على ظهر بعير لأوترته، وله قصيدة في عمل القراءات (حرز الأماني ووجه التهاني) ألف ومئة وثلاثة وسبعون بيتاً، وكان يقول: لا يقرأ أحدٌ قصيدتي إلا ينفعـــه الله عز وجل لأني نظمتها مخلصاً لله تعالى من جاء أولاً فليقرأ.

٨- قالون العلامة الحافظ للقرآن:

ولد بالمدينة المنورة ومات فيها: وهو عيسى بن ميناء ولقبه قالون، وقد لقبه زوج أمه نافع وقالون بالفارسية تعني الجيد، فهل تعلمون أن قالون حافظ القرآن كان أصم شديد الصمم ولو رفعت صـــوتك إلى أعلـــى درجـــة لا يسمع. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

فمن العجب أن خلقاً كثيراً من هذه الأمة سخرَّها الله لحفظ كتابـــه في الصدور كما حُفظ في السطور، والأعجب أن يكون من أعظم وأشهر مـــن

تعلم القرآن وعلَّمه، أصمٌ لا يسمع وهو قالون وكان قالون من علماء اللغة العربية في عصره.

قال أحد العلماءكان قالون أصم شديد الصمم وكان يُقرأ القرآن وينظر إلى شفتي القارئ فيرد عليه اللحن والخطأ ويقول له أقرأ على قراءة نافع فإني أفهم بحركة الشفة.

٩- علامة الحديث الإمام الترمذي:

لقد نقلت إلينا سنة النبي ﷺ في ستة كتب صحاح ومن هذه الصحاح كتاب الإمام الترمذي المسمى (الجامع) أو صحيح الترمذي، أما باقي كتب الصحاح فهي: صحيح مسلم، صحيح البخاري، سنن أبي داوود، سنن النسائي، سنن ابن ماجه، والكتب الستة كانت من عمل رجال أعاجم ليسوا عرباً فليس في الإسلام وفي دين الله فرق بين عربي وعجمي وأسود وأبيض إلا بالتقوى.

أما الإمام الترمذي العظيم الذي نقل لنا سنة النبي ﷺ في الحديث فيدهشكم بأنه كان أعمى وولد أعمى فهو أكمه، هذه عظمة الإسلام الذي جعل من الأكمه الأعجمي رجلاً عظيماً ينقل إلى الدنيا سنة النبي ﷺ وأحاديثه وما نطق به النبي ﷺ.

١٠- موسى بن نصير:

فاتح الأندلس وفاتح جزر البحر المتوسط، وفاتح شمال إفريقيا كلها الفاتح الذي لم يُهزم له جيش قط، هو وتلميذه في قيادة الجيش طارق ابن زياد.

ولد موسى بن نصير في الحجاز وكان قائد الحرس والجنود عند معاوية في دمشق ونجح في فتح جزيرة قبرص وبنى الحصون على البحر المتوسط، ثم

اتجه إلى شمال إفريقيا ففتحها ثم الأندلس، وبنى مدينة القيروان في تونس لتكون مركزاً للقيادة العسكرية.

هذا القائد العظيم الذي سار آلاف الأميال مجاهداً في سبيل الله، هل تعلمون أنه كان أعرج؟ لقد استولى على جبل طارق وكان معه ٢٥٠٠ جندي فقط وذلك في شهر رمضان المبارك عام ٩٣هـ وسُئل مرة كيف كانت الحرب بينك وبين أعدائك الفرنج؟ فقال: والله ما هُزمت لي راية قط، ولا بُدد لي جمع قط، ولا نُكب المسلمون معي قط منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين.

وكان يقول: والله لو انقاد الناس لي لقدتهم حتى أوقفهم على روميه (القسطنطينية) ليفتحها الله على يدي.

١١- داود بن عمر الأنطاكي:

انتهت إليه رئاسة أطباء زمانه، تعلم الرياضيات والمنطق والفلسفة والطب وتعلم اللغة اليونانية وأتقنها إتقان، وقد حفظ القرآن الكريم منذ حداثة سنه، هذا الرجل العظيم إنه الطبيب العالم الضرير الأعمى البصر ذو البصيرة النورانية، وكان يُلقب البصير الحكيم الماهر وكانت له قدرة سمعية خارقة تعينه على اكتشاف الأمراض بطريقة التسمع التي يستخدمها الأطباء اليوم بواسطة السماعات الطبية.

١٢- سيبويه:

إمام النحو ورائده: كان يوماً في حلقة علم الحديث لحماد بن سلمة، قال حماد: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد من أصحابي إلا لو شئت أخذت عليه ليس أبا الدرداء (يعني إلا أبا الدرداء) فقال سيبويه مصححاً وقد ظن أن

أستاذه أخطأ: ليس أبو الدرداء، فقال له حماد: لحنت يا سيبويه لـــيس هـــذا حيث ذهبت. فقال سيبويه: سأطلب علماً لا تلحنني فيه.

وبقي يطلب علوم اللغة العربية حتى استوعبه وألف كتاباً في النحـــو لم يسبقه أحد في هذا العلم (كتاب سيبويه) حتى قيل من أراد أن يعمل كتاباً في النحو بعد سيبويه فليستحِ، هل تدرون أن هذا الرجل كان في لسانه حبسه، وقد توفي في ريعان شبابه وعمره لا يتجاوز اثنين وثلاثين سنة.

١٣- ابن فطيمة:

الإمام الفقيه القاضي والقاضي يجب أن يتمتع بصفات علميـــة دقيقـــة بأحكام الشرع والإسلام وأحكام المعاملات وأن يتمتع بشخصية نزيهة نظيفة وحازمة قوية.

فقد أصيب بمرض أجبر الأطباء في وقتها على بتر أصابع يديـــه العـــشر فكان معاقاً إعاقة شديدة، وكان عندما يريد الكتابة يمسك القلـــم بكفيـــه كلتيهما ويمسك الورق تحت رجله ويكتب خطاً مليحاً سريعاً، حتى إنه كان يكتب عدة صفحات كثيرة في اليوم الواحد.

❁ ❁ ❁

قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم».

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني
فما قولي له لما يعاتبني ويقصيني

قال مالك بن دينار: قولوا لمن لم يكن صادقاً لا تتعب.

حديث عثمان بن مظعون:

جاء عثمان بن مظعون إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله غلبني حديث النفس فلم أحب أن أحدث شيئاً حتى أذكر لك ذلك فقال رسول الله ﷺ: وما حدثتك نفسك يا عثمان؟ قال: تحدثني نفسي بأن أختصي، فقال: مهلاً يا عثمان فإن خصي أمتي الصيام، قال: يا رسول الله فإن نفسي حدثتني أن أترهب في الجبال قال: مهلاً يا عثمان فإن ترهب أمتي الجلوس في المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، قال: يا رسول الله فإن نفسي حدثتني بأن أسيح في الأرض، قال: مهلاً يا عثمان، فإن سياحة أمتي الغزو في سبيل الله والحج والعمرة. قال: يا رسول الله فإن نفسي حدثتني بأن أخرج من مالي كله قال: مهلاً يا عثمان فإن صدقتك يوماً بيوم وتكف نفسك وعيالك وترحم المسكين واليتيم وتطعمه أفضل من ذلك. قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن أطلق خولة امرأتي قال: مهلاً يا عثمان فإن هجرة أمتي من هجر ما حرم الله عليه، أو هاجر إليَّ في حياتي أو زار قبري بعد موتي أو مات وله امرأة أو

امرأتان أو ثلاث أو أربع قال: يا رسول الله فإن نفسي حدثتني أن لا أغشاها (يعني زوجته) قال: مهلاً يا عثمان فإن الرجل المسلم إذا غشي أهله فإن لم يكن من قومته تلك ولد كان له وصيف في الجنة فإن كان من قومته تلك ولد فإن مات قبله كان له فَرطَاً (يتقدم الواردة ويهيئ لهم مدخل الجنة) وشفيعاً يوم القيامة وإن كان بعده كان له نوراً يوم القيامة. قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم. قال: مهلاً يا عثمان فإني أحب اللحم وآكله إذا وجدته ولو سألت ربي أن يطعمني إياه كل يوم لأطعمني قال: يا رسول الله فإن نفسي حدثتني أن لا أمس طيباً، قال: مهلاً يا عثمان فإن جبريل أمرني بالطيب غباً ويوم الجمعة لا مترك له، يا عثمان لا ترغب عن سنتين فمن رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب صَرَفت الملائكة وجهه عن حوضي.

قال رسول الله ﷺ: «إذا اتُخذ ألفئ دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وتعلُّمٌ لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعق أمهُ، وأدنى صديقه وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات والمعازف، وشُربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآياتٍ تتابع كنظامٍ بالٍ قُطع سلكه فتتابع.

قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله تعالى: «أبيّ تفترون أم عليّ تجترِئون، فبي حلفت لأبعثن على أؤلئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيران شرار الناس الذين يسألون عن شرار المسائل حتى يغلطوا بها العلماء.

دخل رجل على النبي ﷺ يقال له عكاف بن بشر التميمي فقال له النبي ﷺ: يا عكاف هل لك من زوجة؟ قال: لا، قال: ولا جارية؟ قال: لا، قال: وأنت موسر بخير؟ قال: وأنا موسر قال: أنت إذاً من إخوان الشياطين ولو كنت من النصارى لكنت من رهبانهم، إن سنتنا النكاح، شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم فما للشياطين من سلاح أبلغ في الصالحين من ترك النساء.

قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ».

وقال أيضاً: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

عن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام قال الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً قال: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه قال: فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال: فأخبرني عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال: فأخبرني عن إماراتها قال: أن تلد الأَمَة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال: ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكَّذب الله ورسوله.

عن أبي الدرداء قال: كنا مع النبي ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان يُختلس العلم من الناس حتى لا يقدرون منه على شيء» فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ولنقرأنه أبناءنا ونساءنا. فقال النبي ﷺ: «ثكلتك أمك يا زياد إنْ كنتُ لأعدُّك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فما تغني عنهم»، قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت فقلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته الذي قال فقال: صدق إن شئت حدثتك بأول علم يُرفع، أول علم يُرفع من الناس الخشوع يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً. [للشيخين والترمذي].

قال رسول الله ﷺ: «إنه يكون بعدي قوم سفلتهم مؤذنوهم، ليؤذن خياركم وليؤمكم أقرؤكم».

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد».

قال رسول الله ﷺ: «فضل الدار القريبة من المسجد على الدار الشاسعة كفضل الغازي على القاعد».

قال رسول الله ﷺ: «من صلى أربعين يوماً في جماعة لم تفته التكبيرة الأولى كتب الله له براءتين براءة من النار وبراءة من النفاق».

قال (سهل بن سعد):

قال رسول الله ﷺ: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعلم أن شرفَ المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس».

وفاة النبي ﷺ:

نُعي إلينا حبيبنا ونبينا محمد ﷺ قبل موته فنظر إلينا فدمعت عيناه ثم قال: مرحباً بكم وحياكم الله وحفظكم الله وآواكم ونصركم الله رفعكم الله وهداكم الله رزقكم لله وفقكم الله سلمكم الله أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم واستخلفه عليكم وإني نذير مبين أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده فإن الله قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] ثم قال النبي ﷺ: قد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى. فقلنا: يا رسول الله فمن يغسلك إذاً؟ قال: رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى قلنا: ففيم نكفنك؟ قال: في ثيابي هذه إن شئتم أو في حلة يمنية قلنا: فمن يصلي عليك منا؟ فبكينا وبكى وقال: مهلاً غفر الله لكم وجازاكم الله عن نبيكم خيراً، إذا غسلتموني ووضعتموني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري فاخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي عليّ خليلي وجليسي جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنوده ثم الملائكة عليهم السلام ثم ادخلوا عليّ فوجاً فوجاً فصلوا عليَّ وسلموا تسليماً ولا تؤذوني بباكية ولا صارخة ولا رانة وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثم أنتم واقرؤا أنفسكم مني السلام ومن غاب من إخواكم فاقرؤا مني السلام ومن دخل معكم في دينكم بعدي فإني أشهدكم أني أقرأ السلام عليه وعلى كل من تابعني على ديني من يومي هذا إلى يوم القيامة قلنا يا رسول الله فمن يدخلك في قبرك منا؟ قال: رجال أهل بيتي مع ملائكة يرونكم من حيث لا تروهم.

مات لمعاذ بن جبل ابن له فكتب إليه النبي ﷺ التعزية: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا وإياكم الشكر فإن أنفسنا وأموالنا وأهلنا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة، متعَّك الله به في غبطة وسرور وقبضه منك بأجر كبير، الصلاةُ والرحمةُ والهدى إن احتسبته فاصبر ولا يُحبطُ جزعك أجرك فتندم، واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع حزناً وما هو نازل فقد كان والسلام.

قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء وصدقة السر تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر».

قال رسول الله ﷺ: «اغزوا تغنموا وصوموا تصحوا وسافروا تستغنوا».

قال رسول الله ﷺ: «من صلى في مسجدي أربعين صلاة لا تفوته صلاة كُتب له براءة من النار وبراءة من العذاب وبراءة من النفاق».

قال النبي ﷺ: «يا سلمان لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته».

جاءت امرأة إلى النبي ﷺ اسمها (قيلة) فقالت: يا رسول الله إني امرأة أبيع وأشتري فإذا أردت أن أبتاع الشيء سُمت به أقل مما أريد ثم زدت ثم زدت حتى أبلغ الذي أريد وإذا أردت أن أبيع الشيء سُمت به أكثر من الذي أريد ثم وضعت حتى أبلغ الذي أريد قال النبي ﷺ: «لا تفعلي يا قيلة، إذا أردت أن تبتاعي شيئاً فاستامي به الذي تريدين، أُعطيتِ أو مُنعت وإذا أردتِ أن تبيعي شيئاً فاستامي به الذي تريدين أُعطيت أو مُنعت».

قال رسول الله ﷺ: «تعشوا ولو بكف من حشف فإن تـــرك العـــشاء مهرمة».

قال رسول الله ﷺ: «من لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذي كساني ما أوراي به عورتي وأتجمل به في حياتي ثم عمد إلى الثـــوب الـــذي أخلـــق فتصدق به كان في كنف الله وفي حفظ الله وفي ستر الله حياً وميتاً قالها ثلاثاً.

قال رسول الله ﷺ: «لا تنتفوا الشيب فإنه ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة».

قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».

١٨ شمائله عليه الصلاة والسلام

كان عليه الصلاة والسلام أزهر اللون، ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردد، إذ افتر ضاحكاً افتر عنه مثل سنا البرق وإذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه. يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة القدر من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعتُه لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

أما طيب ريحه فقال أنس: ما شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله. وكان يضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها.

أما وفور عقله وذكاء لبه وفصاحة لسانه فقد كان أعقل الناس دون تعلم سابق ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه. وكان إذا قام إلى الصلاة يرى من خلفه كما يرى أمامه وكان يرى في ظلمة كما يرى في الضوء. وقال أبو هريرة عن مشيته: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله في مشيه كأنما الأرض تطوى له وإنا لنُجهد أنفسنا وهو غير مكترث. وكان ضحكه تبسماً وإذا التفت التفت معاً وإذا مشى مشى تقلعاً كأنما ينحط من صَبَب. وأما فصاحة لسانه فقد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب وخص ببدائع الحكم وعُلِّم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها ببلاغتها، ومن حكمه وجوامع كلمه التي لا توازى فصاحة وبلاغة: «المسلمون متكافئة دمائهم ويسعى بذمتهم أدانهم وهم يد على من سواهم، الناس معادن وما هلك امرؤ عرف قدره، ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم، وقوله إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون

أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون. وقوله ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً، وقوله الظلم ظلماتٌ يوم القيامة. ودعاؤه: اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي وتصلح بها رغابئي وتزكي به عملي وتلهمني بها رشدي وترد بها أُلفي وتعصمني بها من كل سوء».

وأما شرف نسبه وكرم بلده فهو نخبة بني هاشم ونخبة قريش وحميمها وأشرف العرب وأعزهم من قبل أمه وأبيه ومن أهل مكة أكرم بلاد الله.

وأما مكانته بين قومه فهو الأمين الصادق فقد رزق الحشمة والمكانة في القلوب قبل النبوة وبعدها. فقد روي عن امرأة عندما رأته أرعدت من الفرق فقال: يا مسكينة عليك السكينة.

وأما زهده في الدنيا والمال والطعام فقد كان قليل الطعام قليل النوم قالت عائشة: لم يمتلئ جوف النبي شبعاً قط. وكان لا يسأل أهله طعاماً ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل وما سقوه شرب وكان يقول إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد.

وأما حلمه وعفوه وصبره على ما يكره فقد أدبه ربه فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وسأل جبريل عن تأويلها فقد: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك.

وقد تضافرت الأخبار عن اتصافه بنهاية هذه الأوصاف فما من حليم إلا عرفت له زلة وحفظت له هفوة إلا نبينا لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً. قالت عائشة: ما خُيّر رسول الله بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما

انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله، وكم آذاه المشركون يوم أحد وفي الطائف فقال: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»، ولما فتح مكة قال: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وأما الجود والسخاء والسماحة فكان عليه السلام لا يوازى في هذه الأخلاق.

قال جابر: ما سُئل عليه السلام عن شيءٍ فقال لا، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة.

وصفته خديجة عندما أتى يرتعد من الوحي فقالت: والله لن يخزيك الله: إنك لتحمل الكل وتصل الرحم وتكسب المعدم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر.

وأما الشجاعة والنجدة، فقد حضر المواقف الصعبة وفرَّ الكماة والأبطال عنه وهو ثابت لا يبرح. قال علي: كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحُدُقُ اتقينا برسول الله فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه، وقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدو، قال أنس: كان رسول الله ﷺ أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس لقد فزع أهل المدينة ليلةً فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت والسيف في عنقه وهو يقول لن تراعوا.

وأما الحياء والإغضاء فكان عليه السلام أشد الناس حياءً، قال أبو سعيد الخدري: كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان لا يشافه أحداً بما يكره، حياءً وكرم نفس، قالت عائشة: لم يكن عليه السلام

فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح.

وأما حسن عشرته وأدبه فقد قال علي: كان النبي ﷺ أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكةً وأكرمهم عشرةً وكان يؤلّفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم.

وكان يتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبهم لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه.

وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مداح، وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كراعاً ويكافئ عليها.

وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويداعبهم ويلاعب صبيانهم ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر. وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة وكان يكرم من يدخل عليه ويبسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته وكان يكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم ولا يقطع على أحد حديثه، وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً.

وأما الشفقة والرأفة والرحمة فقد وصفه الله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وكان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته ولا يطيلها. وعن ابن مسعود: كان عليه السلام يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

وأما خلقه بالوفاء وحسن العهد وصلة الرحم فقد روي عن أحد الصحابة قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث فوعدته أن آتيه فنسيت فذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: لقد شققت علي يا فتى. وكان يصل ذوي رحمه يؤثرهم على من هو أفضل منهم. ووفد عليه وفد الحبشة فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه نكفيك فقال: إنهم كانوا لأصحابي مكرمين وإني أحب أن أكافئهم.

وأما تواضعه فكان أشد الناس تواضعاً على علو منصبه ورفعة رتبته وحسبك أنّه خُيّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختار أن يكون عبداً نبياً.

وكان يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس، وحج عليه السلام على رحل رث وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم وقال: اللهم اجعله حجاً مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة. ولما دخل مكة قائماً طأطأ رأسه على رحله حتى كاد أن يمس قادمته توضعاً لله.

وأما عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته فقد سماه أعداؤه الأمين وأما وقاره وصحبته وتؤدته ومروءته فكان أوقر الناس لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه وإذا جلس احتبى بيده، وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة وكان ضحكه تبسماً وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير. مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤتين فيه الحرم.

وأما زهده في الدنيا فحسبك شاهداً أنه توفي عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودي.

وقالت عائشة: ما شبع عليه السلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله، وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً، وقال: لقد عُرض عليّ أن تكون بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب أجوع يوماً فأصبر وأتضرع وأدعوك وأشبع يوماً فأحمدك وأثني عليك.

قالت عائشة: كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك فيقول: يا عائشة مالي وللدنيا: إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا عن ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقَدِموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يُقصَّر بي غداً دونهم، وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي.

وأما خوفه من ربه وطاعته وشدة عبادته فعلى قدر علمه ولذلك قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماوات وحق له أن تئط ما فيها من موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، لو تعلمون ما أعلم ما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى لوددت أني شجرة تعضد.

أما معجزاته عليه السلام فحدث ولا حرج: فأول المعجزات هذا القرآن الكريم وهي المعجزة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة.

ومن معجزاته انشقاق القمر ونبع الماء بين أصابعه، وحنين الجذع إليه وكثرة الطعام بين يديه وإبراء المرضى وذوي العاهات على يديه وكان مجاب الدعوة فقد دعا لبعض صحابته. قالت أم أنس: يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له فقال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته قال أنس: فوالله إن مالي كثير وإن ولدي وولد ولدي ليعدون نحو المئة. ودعا لمعاوية بالتمكين

في الأرض فنال الخلافة ودعا لسعد بن أبي وقاص بإجابة الدعاء فما دعا على أحد إلا استجيب له.

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يعلف البعير، ويقمُّ البيت، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معه إذا أعيا، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصافح الغني والفقير، ويسلّم مبتدئاً، ولا يحقر ما دعي إليه ولو حشف التمر ولو إلى كراع، وكان هين المؤونة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه بسَّاماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوسة، متواضعاً من غير مذلةٍ، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، لم يتجشأ من شبعٍ، و لم يمد يده إلى الطمع.

وبعدُ فهذا غيضٌ من فيض وقليل قليل من كثير كثير أردت أن أذكِّر به إخواني فلعل القلوب تفتح وتصيبها عناية الله في اتباع هدي رسول الله ﷺ وبذلك نصبح من السعداء في الأولى والآخرة.

وأخيراً: رؤي الإمام الشافعي في المنام فقيل: ماذا فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وأدخلني الجنة قيل: بم؟ قال بهذه العبارة: يا رب صل على محمد على آل محمد كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون ﷺ.

١٩ الجدال وآثاره السيئة والكلم الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الطريق الذي نسير فيه طريق الإيمان والدعوة إلى الله هو طريق طويل، يستحوذ العمر كله، ليله ونهاره، وهذا الطريق هو طريق الإيمان وصراع النفس والهوى وصراع الشهوات، وصراع الشيطان سواء أكان إنساً أم جناً ولذلك لا بد من توطيد النفس على الصراع المستمر، ولا بد لنا من النظر بإمعان إلى كتاب الله عز وجل ليكون لنا إماماً ومرشداً ودليلاً حتى لا تزيغ القلوب وتُقهر النفوس من توالي الصعاب وتتابع العقبات التي تصادفنا في هذا المسير.

لقد حدث مثل ذلك مع إمام المتقين سيدنا محمد ﷺ ومع جميع رسل الله ورجال الله من الصالحين فرماه الكفار بالجنون والكذب والافتراء، مما آثر في نفسه وضاق ذرعاً بهم، وها هي الآيات التي خاطب الله بها رسوله والتي توجه الرسول ﷺ وتوجه كل مسلم بعده إلى الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكه العبد عند هذا التكذيب والافتراء والصد والعراك.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].

يقول أحد الصالحين: إذا اشتغل الناس بك (يعني بالإيذاء والتكذيب والافتراء) فاشتغل أنت بربك (يعني بالطاعة والاستجابة والذكر والعبادة).

ولذلك فإن الأوامر الإلهية أتت للنبي ﷺ في هذه الآيات للفت نظره نحو الله عز وجل بالتسبيح صباحاً ومساءً والعبادة لله المستمرة حتى يأتيَ الموت والانصراف كلياً عن الرد على قومه وعدم الدخول معهم في الجدال والمهاترات والرد على الافتراءات.

ولذلك أشار النبي ﷺ في حديثه قال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك الجدال وهو غير محق، وببيت في أعلى الجنة لمن ترك الجدال وهو محق».

وقال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل».

وقال أيضاً: «أبغض الرجال إلى الله عز وجل الألد الخصم».

ويُروى عن أبي الدرداء قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نماري في شيء من أمر الدين فغضب علينا غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم انتهرنا وقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته، ذروا المراء فكفى بالعبد إثماً أن لا يزال مماريا، ذروا المراء فإنه أول ما نهاني الله عز وجل عنه بعد عبادة الأوثان.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨].

وقال أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦-٧].

والواقع أن المؤمن يؤثر بالآخرين بعمله قبل قوله وبروحه قبل فعله، وقد قيل: حيثما وصل التنوير وصل التأثير.

قال أرسطو: إننا لا نعلِّم بأقوالنا ولا بأفعالنا وإنما نعلِّم بحقائق نفوسنا، إن في النفس أشعة تنفذ إلى مجاوريها فتريها لهم.

وعلى المؤمن ألا يلتفت إلى جميع الصيحات من حوله فإن ذلك يصده عن هدفه أو يؤخر سيره في طريقه، واضرب مثلاً على ذلك: رجل خرج من بيته إلى الصلاة لا يريد غيرها، فعرض له في الطريق شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلاماً يؤذيه، فوقف ورد عليه وتماسكا، فربما كان شيطان الإنس أقوى منه فقهره ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول وكمال إدراك الجماعة، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

إننا نعيش اليوم في مجتمع مفتوح على العالم أجمع وأصبح العالم اليوم مثل قرية صغيرة فالفكرة تنتقل إلى كافة أرجاء الكرة الأرضية بدقائق معدودة، وقد كثرت الأفكار الشيطانية وكثر الجدال وصراع الأفكار وتعددت الآراء في الدين والمجتمع الذي نعيش فيه ولذلك علينا أن نبتعد عن كل المهاترات التي ليس تحتها طائل وعلى المسلم أن يحاور ويعرض بضاعته من غير جدال ولا عنفوان وأسلوب العرض للفكرة هو الأسلوب الناجح كما كان رسول الله ﷺ يفعل، وقد كان المشركون يجادلون ويطلبون المعجزات فيجيبهم إنما أنا رسول الله إليكم، ولا أدري ماذا يُفعل بي وبكم.

وقد قال رسول الله ﷺ لنا: «ستجدون بعدي اختلافاً كثيراً» فقال له الصحابة ما العمل يا رسول الله؟ فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجز». وفي حديث آخر: «عليكم بكتاب الله وسنتي».

الكلمة:

١- قال الله عز وجل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

٢- ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

٣- ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٤- ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٥- ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٦- ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

٧- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال رسول الله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم».

وقد حضر وفد من اليمن وسألوا النبي ﷺ فقالوا: أمن البر صيامٌ في السفر، فقال مجيباً: «ليس من البر صيامٌ في السفر»، لفظها «ليس من بر صيامٌ في سفر».

وقال سيدنا عمر: المرء مخبوء تحت لسانه فإذا نطق ظهر خيره من شره، وكان إذا تكلم أسمع وإذ ضرب أوجع وإذا مشى أسرع.

- ضرورة الفصاحة والقدرة على التعبير عن كل ما يجول في الصدر والنطق الصحيح دون تلكؤ.

- مثال الذي أتى عمر بن عبد العزيز وكان أصغر الوفد سناً، فقال ليأتني أولي النهى وكبار السن، فقال له: لو أن الأمور تكون في الأكبر سناً لوجد في القوم الكثير ممن هم أكبر منك سناً.

الكلمة يجب أن تكون أخيراً من وراء القلب الذاكر لله حتى يكون لها الوقع والتأثير الكبير بحيث يخرج النور مع الكلمات فيدخل النور إلى القلب قبل دخول الكلام إلى العقل.

وكذلك يقول أحدهم:

- حيثما بلغ التنوير بلغ التأثير.

- لا تصحب إلا من ينفعك حاله ويدلك على الله مقاله.

- كلمة أبو يزيد دعوت الناس ثلاثين سنة فما استجابوا ثم دعوت نفسي إلى الله ورجعت أدعو الناس فرأيتهم قد سبقوني.

من كتاب دواء القلوب:

الترف والنعيم: قال رسول الله ﷺ: «سيكون أناس من أمتي يولدون في النعيم ويُغذَّون به، همتهم ألوان الطعام وألوان الشراب وألوان الثياب، يتشدقون بالقول، أولئك شرار أمتي».

قال معاوية بن أبي سفيان: إن الدنيا لم تُرِد أبا بكر ولم يُردها، وأرادت عمر ولم يُردها.

حُمل إلى سيدنا عمر مال كثير من فارس فخرج يتصفحه وينظر إليه فهملت عيناه، فقال له عبد الرحمن بن عوف يا أمير المؤمنين ما يبكيك، إن هذا لمن مواطن الشكر، فقال عمر هذا والله ما أُعطيه قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أخوف ما أخاف عليكم أن تُفتح عليكم الدنيا كما فُتحت على الذين من قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

قال علي رضي الله عنه: أخوف ما أخاف عليكم اثنتين: طول الأمـــل واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة وأما اتباع الهوى فإنه يصدُّ عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة أتت مقبلة ولكل واحدة منـــها بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل.

قال بعض الحكماء: بضاعة الشيطان خمسة وعملاؤه خمسة:

١- الحسد ويشتريه منه العلماء.

٢- والكبر ويشتريه منه الأراذل.

٣- والظلم والجور ويشتريه منه الأمراء.

٤- والخيانة ويشتريها منه التجار والصناع.

٥- والمكر والكيد ويشتريه منه النساء والضعفاء.

قال رسول الله ﷺ: «سيصيب أمتي داء الأمم»، قالوا: يا رسول الله وما داء الأمم؟ قال: «الأشر والبطر والتكاثر في الدنيا والتباغض والتحاسد حـــتى يكون البغي ثم يكون الهرج».

وقال سيدنا علي: ما كان قوم في رغد العيش فزال عنـــهم ذلـــك إلا بخطيئة اجترحوها.

٢٠ آداب وأهمية الدعاء

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

حسب نفسي أنني عبدٌ يحتفي بي بلا موعيد ربُ

وقال تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تعجِزوا في الدعاء فإنه لا يَهلِك مع الدعاء أحد».

وقال رسول الله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض».

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله حيي كريم، يستحي -إذا رفع الرجل إليه يديه- أن يردها صِفراً خائبتين».

وقال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله، فإن الله يُحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج».

وقال رسول الله ﷺ: «ألظوا بياذا الجلال والإكرام».

وقال رسول الله ﷺ: «إن العبد لا يخطئهُ من الدعاء إحدى ثلاث: إما ذنب يُغفر له، وإما خير يُعجل له، وإما خير يُدخر له».

أما آداب الدعاء فهي أحد عشر:

الأول: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة (إن لله خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص). يوم عرفة- شهر رمضان- ليلة القدر- يوم الجمعة- ساعات الليل والسحر قبل الفجر. قال يعقوب لأولاده: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨].

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة: قال أبو هريرة: تفتح أبواب السماء عند زحف الصفوف، ونزول الغيث، وعند إقامة الصلاة المكتوبة، وبين الأذان والإقامة.

وقال رسول الله ﷺ: «الصائم لا تُرد دعوته» وفي حالة السجود: «أقرب ما يكون العبد من الرب وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء».

وقال رسول الله ﷺ: «إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قَمِنٌ أن يُستجاب لكم».

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يُرى بياض إبطيه، قال أبو الدرداء: ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تُغل بالأغلال، وكان رسول الله ﷺ إذا مد يديه في الدعاء لم يردها حتى يمسح بهما وجهه. وأن لا يرفع بصره إلى السماء، قال رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتُخطفن أبصارهم».

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر، قال أبو موسى الأشعري: قدمنا المدينة مع رسول الله ﷺ فكبر الناس ورفعوا أصواتهم، فقال النبي ﷺ: «أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذي تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم».

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع منكسر والتكلف لا يناسب هذا المقام، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والسجع في الدعاء حَسْبُ أحدكم أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل». قال بعضهم: «ادعُ بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق».

السادس: أن يستجمع عند الدعاء الخشوع والتضرع والرغبة والرهبة والذل والانكسار: قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

السابع: أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة، قال رسول الله ﷺ: «لا يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مُكره له».

قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء، وقال رسول الله: ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل».

الثامن: أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً ولا يستبطئ الإجابة، قال رسول الله ﷺ: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يُستجب لي، فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كريماً».

التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله والثناء على الله، مثال: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب. يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، أو يبدأ الدعاء بالصلاة على النبي.

قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله فابتدِئوا بالصلاة عليَّ فإن الله تعالى أكرم من أن يُسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويرد الأخرى».

العاشر: الأدب الباطن مع الله وهو الأصل في الإجابة، وهذا الأدب يتمثل في التوبة ورد المظالم والإقبال على الله بكل الهمة.

الحادي عشر: الإنفاق والصدقات ومساعدة الفقراء والمساكين والمحتاجين.

الأدعية المأثورة:

«اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعثي».

دعاء عائشة:

قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة عليك بالجوامع الكوامل قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله... اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد...».

دعاء بريدة الأسلمي:

قال رسول الله ﷺ: «يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه ثم لم يُنسهن إياه أبداً» قال: قلت: بلى يا رسول الله: قال: «اللهم إني ضعيف فقوِ في رضاك ضعفي وخذ إلى الخير بناصيتي واجعل الإسلام منتهى رضاي، اللهم إني ضعيف فقوني وإني ذليل فأعزني وإني فقير فأغنني يا أرحم الراحمين».

دعاء فاطمة:

قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك بـــه أن تقولي: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله».

دعاء أبي الدرداء:

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... ما شاء الله كان وما لم يـــشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله أحاط بكل شيء علماً، أعوذ بالله من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم.

دعاء عتبة الغلام:

اللهم يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثـــرات العـــاثرين ارحم عبدك ذا الحظر العظيم والمسلمين أجمعين واجعلنا مع الأخيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

دعاء تضرع ومناجاة للأصمعي:

(إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة).

يا فاطر الخلق البديع وكـــافلاً ... رزق الجميع سحاب جودك هاطل
يا مسبغ البِر الجزيل ومسبل السِتر ... الجميل عميم طولـــك طائـــل
يا عالم السر الخفي ومنجز الوعـــد ... الوفي قضاء حكمـــك عـــادل
عَظُمت صفاتك يا عظيم فجلَّ ... أن يحصي الثناء عليك فيها قائل

الذنب أنت له بمنك غافر ... ولتوبة العاصي بحلمك قابل
ربٌ يربي العالمين ببره ... ونواله أبداً إليهم واصل
تعصيه وهو يسوق نحوك دائماً ... ما لا تكون لبعضه تستاهل
متفضلٌ أبداً وأنت لجوده ... بقبائح العصيان منك تقابل
وإذا دجا ليل الخطوب وأظلمت ... سبل الخلاص وخاب فيها الأمل
وأيست من وجه النجاة فما لها ... سبب ولا يدنو لها متناول
يأتيك من ألطافه الفرج الذي ... لم تحتسبه وأنت عنه غافل
يا موجد الأشياء من يسعى إلى ... أبواب غيرك فهو غرٌّ جاهل
ومن استراح بغير ذكرك أو رجا ... أحداً سواك فذاك ظلٌ زائل
رأي يُلمُّ إذا عرته ملمة ... بسوى جنابك فهو رأي مائل
عملٌ أريد به سواك فإنه ... عمل وإن زعم المرائي باطل
وإذا رضيت فكل شيء هينٌ ... وإذا حصلتَ فكل شيء حاصل
أنا عبد سوء آبق كَلٌّ على ... مولاه أوزار الكبائر حامل
قد أثقلت ظهري الذنوب وسودت ... صحفي العيوب وستر عفوك شامل
ها قد أتيت وحسن ظني شافعي ... ووسائلي ندم ودمع سائل
فاغفر لعبدك ما مضى وارزقه توفيقاً ... لما ترضى ففضلك كامل
وافعل به ما أنت أهل جميلهِ ... والظن كلٌّ الظن أنك فاعل

قال حذيف المرعشي: بقينا في طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً مع إبراهيم بن الأدهم حتى قاربنا الوصول إلى الكوفة فقال: يا حذيفة أرى فيك أثر الجوع فأتني بقرطاس وقلم واكتب عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم: أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنىٍ:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكـــر أنا جائع أنا ضائع أنا عـــاري
هي ستة وأنا الضمين لنـــصفها فكن الضمين لنصفها يا باري
سؤلي لغيرك لَهب نار خضتها فأجر عُبيدك من لهيب النـــار
والنار عندي كالسؤال فهل تـــرى أن لا تكلفني دخـــول النـــار

قال حذيفة: ودفع إلي الرقعة وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغـــير الله وادفعها إلى أول من يلقاك، فلقيني رجل فقرأها وبكى وقال: أين صـــاحب الرقعة؟ قلت: في المسجد فأعطاني صُرة فيها ستة مائة درهم، فوجدت رجلاً فسألت من هذا الراكب فقال نصراني.

كتب أبو نواس عند موته:

يا ربِ إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمتُ بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محـــسن فمن الذي يدعو ويرجو المجرم
أدعوك ربِ كما أمرت تضرعاً فإذا رددتَ يدي من ذا يرحم
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرجـــا وجميل عفـــوك ثم إني مـــسلم

❁ ❁ ❁

الفهرس

قيام الليل ٧
محاسبة النفس ١١
فضل العقل وذم الهوى ١٦
ذكر الموت ٢٢
العلاج الصحيح للجسد والروح ٢٦
البكاء من خشية الله ٣٠
الرجوع إلى الله عز وجل ٣٢
حب الدنيا وكراهية الموت ٣٦
الأثرة وحب الذات..... ٤٠
محاسن الأخلاق ٤٤
أخلاق الصوفية ٤٧
الكبر والإعجاب ٥٢
في ظلال سورة المؤمنين ٥٦
رجال رباهم رسول الله ٦١
قصة ذو البجادين ٦٧
معاقون ولكنهم عظماء ٦٩
شذرات من كتاب الزوائد ٧٧
شمائله عليه الصلاة والسلام ٨٤
الجدال وآثاره السيئة والكلم الطيب ٩١
آداب وأهمية الدعاء..... ٩٧
الفهرس ١٠٤